شركاء فى الحياة

عبد الوهاب مطاوع

فريق متميزون
E-BOOK

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب النادر:

كلمه مهمة:

هذا العمل (تحويل كتاب: شركاء في الحياة.. للكاتب عبدالوهاب مطاوع الي صيغة نصية) هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

كتب مجمعة لبريد الجمعة:

شركاء في الحياة

عبدالوهاب مطاوع

بسم الله الرحمن الرحيم..

{وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}

صدق الله العظيم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

للناشر كلمة...

منذ وجدت الحياة الإنسانية، وجدت معها مشاكلها ومتاعبها.. فقد نشب النزاع بين أول أخوين من البشر ظهرا على وجه الأرض.. وقصة هابيل وقابيل معروفة للجميع.

وكلما تواترت العلاقات الاجتماعية بين بني الإنسان، كلما توترت هذه العلاقات، وتعددت أسباب توترها... فالحياة بطبيعتها لا يمكن تصورها خالية من الهموم..

ومن الهموم ما يعصف بسعادة الإنسان، ويقلق مضجعه فيصعب عليه النوم أو الراحة، ويمتلىء قلبه وجوانحه بالعذابات والمشاعر الجارحة.

والإنسان بطبعه يجب أن يعيش حياته سعيدا بعيدا عن كل أنواع الهموم والمشاكل والمتاعب أيا كانت صورها... يحب الفرح وراحة البال، وينعم بالرضا عن نفسه والرضا عن علاقاته بالآخرين، ويتمنى دائما أن تمر حياته سلسة هانئة خالية من كل أسباب الكدر، وكل الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى تعكير صفو هذه الحياة..

ولكن هيهات أن يحقق أي إنسان يعيش على ظهر الأرض هذا الأمل البسيط، فكل إنسان محاط بالمشاكل أينما وجد.. ولكن الله سبحانه وتعالى - وهو اللطيف الكريم - قد ينعم على بعض العباد بالقدرة على تحمل المتاعب والصبر على البلايا فيهون عليهم ويخفف عنهم، بل وقد يجعل النار بردا وسلاما، وهو على كل شيء قدير..

ومع ذلك فالإنسان دائما يسعى إلى المقربين إليه ليبثهم شكاواه ويستلهمهم النصيحة.. لعله يجد لديهم حلا بريحه أو خلاصا يخلصه مما يعانيه وكلما وثق الإنسان فيمن يلجأ إليه، كلما كان ذلك سبيلا إلى الراحة والخلاص.. فيتقبل النصيحة بكل رضا واقتناع... فيهون الأمر ويزول الغم وتختفي الأحزان..

ونادرون هم من وهبهم الله القدرة على حل مشاكل الناس وارشادهم إلى نور الهداية والراحة، وتخفيف همومهم وما تنوء به كواهلهم من أثقال.. والأستاذ عبد الوهاب مطاوع غني عن التعريف في هذا المجال، ويشهد على ذلك بابه الأسبوعي «بريد الجمعة» في جريدة الأهرام.. حيث جعل هذا الباب منتجعًا للنفوس التي أضنتها متاعب الحياة.. وملجأً لكل من ينشد اللطف والتخفيف والرحمة إذا ألمت به الهموم أو حاقت به الملمات.

وقد حاز الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ثقة قرائه بشكل لم يسبق له مثيل في الكتابة الصحفية عن المشاكل الإنسانية والاجتماعية، سواء في الصحف المصرية أو صحف العالم العربي بأسره.. وذلك بها تميز به من قدرة فائقة على عرض جوانب «المشكلة» بأسلوب سهل وعميق في الوقت نفسه، وعرض «الحل» الذي يقترحه بأسلوب أكثر سهولة وعمق.. مستعينا على هذا الحل بكل الوسائل والأساليب.. ويؤيد حلوله بما يناسبها من آيات القرآن الكريم أو الأحاديث النبوية الشريفة، وأقوال الفلاسفة والحكماء والشعراء، بالإضافة إلى التحليل في ضوء أحدث النظريات في علم النفس وعلم الاجتماع.

والتوفيق فضل من الله عظيم..

الناشر،

أول ديسمبر ١٩٩٣

∞∞∞∞∞∞

ابتسامة الثقة

اكتب لك يا سيدي قصتي لعلى أساعد بها أي أم تتعرض لمثل ظروف أمي أو أي طالب يواجه ما واجهته من مشاكل الحياة.

فأنا شاب مصرى نشأت في أسرة غنية، وتفتحت للحياة فوجدت نفسي وإخوتي الصغار نتعلم في المدارس الأجنبية، ونقيم في شقة فاخرة على نيل القاهرة الجميل ولنا شقة أخرى في الإسكندرية.. ونستمتع بكل أطايب الحياة.. ثم تعرضت أسرتي لعدة هزات مالية مدمرة لم أعِ تفاصيلها وقتها وأنا طفل صغير وإنها أدركت منها فقط أننا فقدنا خلال سنوات قليلة كل شيء.. وحاول أبي إنقاذ ما يمكن إنقاذه ووقف التدهور فلم يستطع.. فمرض من جراء ذلك ومات بعد فترة قصيرة..

ووجدت أمي الشابة وقتها نفسها مسئولة عن «كومة» من الأطفال الصغار بلا عائل ولا سند إلا الله سبحانه وتعالى فبدأت تواجه مصيرها بعد انصراف الأقارب والأصدقاء عنها وعنا، فقررت أن تترك شقة النيل بالرغم من أن إيجارها لم يكن يزيد على عشرين جنيها وقتها. ولو احتفظت بها لما قل ثمنها الآن عن ربع مليون جنيه، وانتقلت بأسرتها إلى شقة صغيرة في أحد أحياء الجيزة إيجارها خمسة جنيهات.. وأصبح هدف حياتها هو أن تربي صغارها وتضمن لهم الاستمرار في التعليم، وبدأت ببيع ما لديها من مصوغات ذهبية وأجهزة منزلية شيئا فشيئا حتى أتت عليها كلها. فأجرت إحدى غرف الشقة الضيقة لتستعين بها بدره عليها إيجارها من جنيهات قليلة على نفقاتنا ثم بدأت تتعلم الخياطة وتقوم بحياكة الملابس لبعض السيدات من الجيران الطيبين. وكانت قد أخرجتنا من المدارس الأجنبية منذ بداية المحنة فواصلنا التعليم في المدارس الحكومية. وجعلت الدنيا من حولنا تماما. ومرت بنا أيام مريرة كثيرة كان هم أمي الأول فيها هو كيف تدبر لنا طعام الغد ومن أين.. لكنها لم تيأس أبدا ولم تفقد إيمانها بربها ولم تستسلم للأحزان. وأعتقد أننا قد ساعدناها أيضا على ذلك فقد تقبلنا أقدارنا بغير سخط وعشنا أياما كثيرة لم نكن نجد ما نأكله فيها سوى الخبز فقط، وفي بعض الأحيان لم نكن نجد سوى الخبز الذي أصابه العفن فتقوم أمي بقليه في الزيت وتقدمه لنا فنأكله بشهية كأنه دجاج محمر ونحمد الله على ذلك..

وفي غمار هذه الأيام العصيبة علمتنا أمي شيئين مازلت أعمل بهما حتى الآن.. فقد كانت تجمعنا حولها ونحن أطفال صغار ثم تقول لنا:

قولوا ورائي «حلال» فنردد وراءها الكلمة كما نفعل مع مدرس الفصل أكثر من مرة فتقول: أرأيتم كيف تفتح هذه الكلمة فم الإنسان وهو ينطق بها إلى آخر مدى، كذلك يفعل «الحلال» ببيت الإنسان حين يدخله.. فيفتحه ولو كان رزقة قليلا.. ثم تقول لنا: قولوا ورائى «حرام» فنردد الكلمة وراءها. فتقول: أرأيتم كيف أن نطق هذه الكلمة يحتاج ممن ينطقها إلى أن يغلق فمه لكي ينطق بها كذلك يفعل «الحرام» ببيت من يدخله فيغلقه، أما الشيء الآخر الذي علمته لنا فهو ألا نستدين من أحد أبدا مهما كانت ظروفنا، وأن نكيف حياتنا بها بين أيدينا مهما كان شحيحة وقليلة..

ومضت الأيام بنا والتحقت بالجامعة - وأصبحت أتردد على كليتى كل يوم.. وأذهب إليها في كثير من الأحيان ماشية على قدمي لأني لا أجد قرش المواصلات وكانت تذكرة الأتوبيس أيامها لا تتكلف غيره ورغم ذلك فقد خفف التحاقي بالجامعة بعض عناء حياتي الصعبة، فقد تقدمت بطلب لإعفائي من الرسوم الإضافية التي كانت كما أذكر حوالي ثلاثة جنيهات، فتم إعفائي منها وتقررت لى إعانة سنوية من الإدارة الاجتماعية بالجامعة.. وكانت مبلغ قدره تسعة جنيهات كل سنة وليس كل شهر.

ورغم أنه لم يكن يكفيني إلا أنه كان بالنسبة لى ثروة هبطت على من السماء بالإضافة إلى الإعانة الشهرية التي تحصل عليها أمي من الشئون الاجتماعية وهي ثلاثة جنيهات لكني لم أكن أستطيع أن أشترى الكتب الجامعية، فكنت أذهب إلى مكتبة الجامعة في بداية العام الدراسي كل يوم وأقوم بنسخ هذه الكتب وتلخيص بعضها بخط يدي، كما كنت أعتذر عن قبول دعوة من زملائي إلى تناول الشاي على حسابهم في بوفيه الكلية.. لعدم ثقتي في أني سأستطيع أن أرد لأحدهم الدعوة في يوم من الأيام.

ومن حين إلى آخر كانت حياتنا تتخفف من بعض جفافها بشيء قليل من اليسر فقد كنت أعمل أحيانا بقسم الحفلات بأحد الفنادق الكبرى كعامل موسمي يستدعي حين تكون هناك أفراح بالفندق ولم تكن تقام كثيرا بالفنادق كما هو الحال الآن، وكان يوم عملي في إحدى هذه الحفلات عيدة في أسرتنا المكافحة فأذهب إلى الفندق في الموعد المطلوب.. وأخلع القميص والبنطلون في غرفة العمال، وأرتدى ملابس الخدمة المملوكة للفندق، وكانت على أيامي قفطان أزرق وحزاما من القماش الأبيض وعمامة بيضاء كاللاسة ثم أعمل بحماس في خدمة المدعوين وتوزيع الشربات حتى ساعة متأخرة.. وأعود لبيتي في النهاية ومعى جنيه أو جنيهان على الأكثر وأنام قرير العين راضيا.

وفي أحد هذه الأفراح.. شاهدت زميلا لى بالكلية وعرفت أن الفرح لشقيقه الأكبر.. ورآني في ملابس الخدمة وأنا أحمل الصينية وأدور على المدعوين بأكواب الشربات فلم أخجل من وضعي لأني أعمل عملا شريفا.. لكنه هو الذي خجل منى للأسف ورفض أن يرد على تحيتى له.. وتجاهلني متقززا طوال الحفل. ومع ذلك فقد مضت الحياة وكان لا بد لها أن تمضى.. وفي هذه الأثناء تزوج شقيقي الأكبر وانفصل عنا وتركنا بلا سؤال، وأنهيت دراستي الجامعية بلا رسوب في أي سنة من سنواتها وعملت بمؤسسة صغيرة في مصر، ثم انتقلت منها إلى مؤسسة كبيرة وبدأت أول نسمة رطبة تتسلل إلى صحراء حياتنا الجرداء. وبدأنا نستغني بمرتبى عن إيجار الغرفة المفروشة في شقتنا، وأحسسنا لأول مرة منذ سنوات طويلة أن لنا شقة مستقلة. وواصل إخوتي تعليمهم في المدارس والجامعات.. إلى أن جاءني أحد زملائي في العمل وأبلغني بوجود فرصة عمل لى بإحدى الدول بغير سعى منى ولا تخطيط..

وذهبت معه وقابلنا المسئول عن التعاقد، ووقعت العقد معه خلال دقائق.. وسافرت إلى عملي الجديد بعد شهر، وفارقت أمي وإخوتى لأول مرة.. وعملت بمؤسسة كبيرة يعمل بها مائتا موظف وعامل كان ترتيبى بحكم الأقدمية في الصف الأخير

منهم، وأقبلت على عملي بحماس وإخلاص.. وكان عملي المتعلق بالشئون المالية يتطلب الأمانة التامة، فتعرضت فيه لإغراءات كبيرة ومواقف كثيرة لا داعي لسردها لكن يكفي أن أقول لك: إنها كانت تحثني حثا على خيانة الأمانة والاستفادة بمال كثير يتعذر على أحد كشفه، فلم أستجب والحمد لله لأي إغراء ولا لأي محاولة لأني كنت محصنا بكلمات أمي القديمة عن الحرام الذي يغلق الأفواه والبيوت والحلال الذي يفتحها وأردت أن يكون كل ما أرسله لأمي من نقودي مالا حلالا كما أطعمتني هي من مال حلال وأنا صغير..

ومضى عام وأنا في هذا العمل ثم فوجئت بصاحبه يستدعيني فجأة لمقابلته، فذهبت إليه وأنا أتساءل عن سبب الاستدعاء، وكنت قد لاحظت أنه لا يأتي إلى هذه المؤسسة إلا مرة واحدة كل شهر ولا يطول وجوده بها عن دقائق في كل مرة، ثم قابلته فذهلت حين وجدته على علم بكل تفاصيل عملي من أصغرها شأنا إلى أكبرها وعلى علم أيضا بكل ما تعرضت له. وطال اجتماعه بى ثلاث ساعات ثم أصدر بعده عدة قرارات بترقيتي إلى منصب الرجل الثالث بالمؤسسة ومنحي سلطات لا حد لها وتفوق في بعضها سلطات المدير العام فيما يتعلق بالنواحي المالية، وبمضاعفة أجرى ومنحي بعض الامتيازات الأخرى.. وشكرت الله كثيرا وواصلت عملى بنفس الحماس والإخلاص..

وبعد عامين من ذلك تخرج أخي الأصغر. في كليته، فتحدثت مع صاحب العمل بشأن إلحاقه بإحدى شركاته فاستجاب لطلبي على الفور وأسرعت باستدعائه وتسلم العمل في إحدى الشركات وتحسنت أحوال أسرتي كثيرة والحمد لله، وعدت إلى مصر فاشتريت شقة واسعة وأثبتها بأثاث لائق ونقلت أسرتي إليها، واستقرت الأحوال بنا فاتفقت مع شقيقي على أن نقوم بأداء العمرة معا ونصحب إليها أمنا المكافحة الصابرة.. ورتبنا كل شيء ودخلنا مع أمي إلى الكعبة المشرفة ونحن بملابس الإحرام فتعمدت أن أرقبها خفية لأرى تأثير هذه اللحظة عليها، فإذا بها تبتسم وهي تنظر للكعبة التي تراها لأول مرة ابتسامة فيها خشوع الله وشكر له.. فيها أيضا ثقة واطمئنان عجيبان كأنها كانت واثقة تماما أن هذه الزيارة سوف تتم.. وتعرف الموعد الذي ستتم فيه على وجه التحديد..! وجاش صدرى بانفعالات عديدة فانهمرت دموعي التي تجمدت في عيني منذ سنوات الدراسة لأول مرة ولم أستطع كبحها فكانت مزيج من دموع الفرح والخشوع والشكر لله رب العالمين، واحتفلنا بأمي في هذه البقعة الطاهرة وقبلنا يديها وأحسسنا كأن الله قد توج كفاحها بهذا المشهد المؤثر.. وانتهت قصتنا عند هذا الحد يا سيدى ولى بعد ذلك رجاء عندك هو أن تطرح هذا الاقتراح وتدعو المختصين لتيسير تنفيذه على الراغبين. إن مبلغ الجنيهات التسعة التي كنت أتقاضاها كل سنة وأنا طالب بالجامعة لم تكن تكفيني وهناك طلبة كثيرون يواجهون ظروفي السابقة فلماذا لا يكون هناك نظام يتيح لكل قادر يرغب في ذلك. أن يختار عن طريق الكلية طالبا أو أكثر ويكتب باسمه شيكا أو شيكات بمبلغ سنوي أو شهرى ويتركه للكلية فتصرفه للطالب المحتاج ويصبح هذا الشخص القادر مسئولا عن هذا الطالب طوال دراسته وتبلغه الكلية بنتائجه الدراسية كل سنة إلى أن يتخرج. إن ذلك لو حدث فسوف يخفف متاعب كثيرة

يواجهها بعض الطلبة ويحفظ لهم كرامتهم ويسعد كثيرين من القادرين العاملين في مصر وفي خارجها ويضاعف لهم من أرزاقهم با يزكون به عن أموالهم عن هذا الطريق الشريف.. فلماذا لا نبحث هذه الفكرة وننفذها عن هذا الطريق الشريف.. ولماذا لا ننفذها عن طريق الجامعات مباشرة، هذا ما أردت أن أقوله لك وأشكرك على حسن الاستماع والسلام عليكم ورحمة الله.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

مما يخفف على المكافحين من أمثالك بعض عناء الطريق هو أننا نؤمن مع الكاتب الإنجليزي الثائر «توماس بين» أنه كلما ازداد عنفوان الكفاح.. ازداد مجد النصر وأن ما نحصل عليه بثمن رخيص فإننا ننظر إليه عادة دون اهتمام كبير. أما ما نحصل عليه بالثمن الغالي فهو وحده الذي يستحق الاحتفال والتكريم.

ولا شك أن هذا كان إحساسك وأنت ترقب أمك العظيمة وهي تبتسم ابتسامة الثقة والنصر والشكر وأنتم جميعا في رحاب الكعبة المشرفة بعد رحلة العناء الطويلة. ولا شك أيضا أن رضاءك عن نفسك وعما حققت في حياتك كان وما زال مضاعفة لأنك لم تحصل على شيء منه بثمن رخيص، وإنما بالكفاح والحرمان والصبر على المكاره والتزام القيم إلى أن أذن الله لكم جميعا بكشف الغمة وهيأ لكم طريق الخلاص منها.. في لحظة كلحظة التنوير التي أمر فيها عبده ونبيه أيوب عليه السلام أن يضرب الأرض برجله ففعل فنبع له نبعان شرب من أحدهما واغتسل من الآخر فذهب بلاؤه بأمر ربه جزاء لصبره واحتسابه قائلا له: «أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب»»

وهكذا يقول ربك حين يشاء للصابرين على البلاء والمكافحين بشرف وصبر وتعفف عن الدنيا والآثام لإسعاد أنفسهم ومن يعولون ولإعلاء القيم السامية في الحياة. وهكذا تصحح الحياة تدريجيا بعض أخطائها.. وتيسر لها النفوس الشريفة طريق التصحيح ومن شرف النفس أن تأبى ما أبته أمكم لكم من أن تطعموا من حرام، ومن شرفها أيضا أن يرقي الإنسان إلى فهم حقيقة الحلال والحرام بمثل هذا التصوير الرمزي العجيب الذي صورته لكم أمكم في طفولتكم. وهو بالمناسبة ابتكار جديد يستحق أن يسجل لها في دراسات العلاقة بين الكلمات ومدلولاتها. ورنينها الصوتي.. وسبحان من يودع قلوب الأمهات الطيبات مثل هذه الحكمة الفطرية التي تختزل أحيانا في كلمات موحية مختصرة ما قد يحتاج أحيانا إلى إسهاب طويل لشرحه والتدليل عليه.

ولعل تجربتك في العمل وفي الحياة قد أكدت لك بعد نظرها وصدق القيم الدينية والخلقية التي تنفر من الحرام وإن كان مغرية وترغب في الحلال وإن كان شحيحة، وهو ما تؤكده كل يوم تجارب الحياة المتكررة ومع ذلك فلا يتعلم البعض الدرس إلا بعد فوات الأوان.. وبعد أن تتوالى كوارث الحياة عليهم ويسقط اعتبارهم، ويكتشفوا

ـ غالبا – انهم قد حققوا لأنفسهم كل شيء في الحياة إلا راحة القلب والضمير وسلام النفس واحترام الآخرين والاستمتاع الحقيقي بما كسبوا وأحرزوا..

ونبع الحرام متاح للجميع دائما يا صديقي ويستطيع أن يرده كل من يريد: لكن ليس من حق من يقبله ويرتوي منه أن يتساءل بعد عن أسباب افتقاده للستر والطمأنينة ولكل شيء جميل وصادق في حياته وحياة أسرته.. حتى ولو مد الله له في حبال الصبر وطال نجاحه ونما ثراؤه. ففي الحديث الشريف «إذا غضب الله على عبد رزقه من حرام، وإذا اشتد غضبه عليه بارك له فيه»! والبعض يعميهم بالفعل ما يرون أحيانا من اطراد النجاح والثراء رغم المنابع الحرام لهم وينسبون أن عظم العقاب من عظم الجريمة!

وما جرى معك في عملك تأكيد جديد لكل ذلك.. وإعلان متكرر لما يؤمن به الصادقون من أنه قد يسبق المنحرفون في بعض مراحل السباق، لكن نهاية الشوط غالبا للأمناء والصالحين من أمثالك. فاهنأ بما حظيت وحققت يا صديقي ولعل زميلك الذي خجل منك ذات يوم وأنت بملابس الخدمة في فرح شقيقه.. يتذكرك الآن ويعرف كم كان مخطئًا حين تقزز منك وأنت تكافح بشرف لإعالة نفسك وأسرتك، ولعل شقيقك الأكبر أيضا يكون قد عاد إلى نفسه وتعلم بالدرس الغالي أنه لا يربح في النهاية إلا ذوو النخوة والمروءة ومن لا يتخلون عن واجباتهم الأسرية.

أما اقتراحك النبيل بإيجاد نظام يكفل للراغبين التكفل بنفقات بعض الطلبة غير القادرين فهو اقتراح جدير بالدراسة والتنفيذ، وإن كانت هناك جمعيات ولجان عديدة للزكاة تقوم بشيء من ذلك بطرق مختلفة كما أن بعض الفضلاء يوجهون مساهماتهم لبنك ناصر الذي يقدم بعض القروض للطلبة خلال مرحلة الدراسة.. ومع كل ذلك فإن ما تقترحه هو شكل آخر لهذه المساعدة يمكن تنفيذه مع الإدارات الاجتماعية بالكليات والمعاهد المختلفة وشكرا لك على رغبتك الصادقة.. وعلى رسالتك التي أتاحت لنا استراحة قصيرة من الهموم استمتعنا خلالها بمتابعة قصتك الجميلة النبيلة هذه. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الملابس المتهدلة!

أريد أن أروي لك قصتي وأن أشرك فيها معى أصدقاءك المهمومين..

وأبدأ بأن أقول لك إني فتاة في الخامسة والعشرين من عمرى نشأت في أسرة مصرية عادية لا تملك إلا الستر والرضا بأقدارها، وقد أنهيت دراستي منذ ثلاث سنوات ولم يكن بين أفراد أسرتي من يستطيع أن يزكيني للعمل في شركة كبرى أو صغرى فبدأت أقرأ إعلانات الوظائف في الصحف اليومية وأتقدم للمسابقات بلا جدوى.. إلى أن نجحت بعد عام من الانتظار في الحصول على وظيفة بمرتب بسيط بعقد مؤقت في إحدى الشركات، وسعدت بالوظيفة وأقبلت على العمل بحماس، ويوما بعد يوم بدأت روابط الزمالة تجمع بيني وبين زميل يكبرني بثلاث سنوات كان موضع احترام الزملاء واهتمام الزميلات لوسامته وأمانته وجديته وتدينه. أما أنا فقد أعجبني فيه إلى جانب ذلك أن وسامته هي وسامة الرجولة التي تنطق بها ملامحه وشخصيته القوية وليست وسامة الميوعة، فانطويت له على احترام عميق ولم تتجاوز أحلامي تجاهه هذه الحدود بعد أن لاحظت تهافت زميلتين عليه وقارنت بين مؤهلاتها ومؤهلاتي فأدركت أني لا أصمد لأي مقارنة معها، فقد كانت إحداهما من أسرة كبيرة وتأتي إلى العمل في سيارتها وترتدي ملابس فاخرة، وكانت الأخرى من أسرة ثرية ويشي حديثها بالثراء والفخامة وكنت أنا فتاة بسيطة لا تعده بمجد ولا بأثاث فاخر ولو تزوجنى لوجد نفسه مسئولا تقريبا عن كل شيء ما عدا القليل الذي تسمح به ظروفي.

ومضت على زمالتنا عشرة شهور وهو لا يبدى ميلا لأي من الزميلتين حتى يئست منه إحداهما وخطبت لغيره.. وظلت الأخرى على اهتمامها..

وذات يوم، نظمت شركتنا رحلة لقضاء يوم على شاطيء بحيرة التمساح في الإسماعيلية.. ولم أفكر في الاشتراك فيها لعزوفي عن الضجيج وميلي للهدوء ففوجئت به يسألني عن سبب عدم اشتراكى في الرحلة.. ودهشت قليلا وأجبته بأني لم أفكر في ذلك فقال لي بثبات وهو يركز عينه علىّ بأنه لن يشترك فيها إلا إذا اشتركت أنا!

ولا أنكر أني سعدت بذلك وأبلغته أني سأفعل، فابتسم في هدوء، وذهبت إلى الرحلة واستمتعت بيوم جميل ساده التفاهم الصامت بينى وبين زميلي الوسيم.

ولم أستطع أن أقاوم بعدها نفسي التي بدأت تستسلم للآمال وبدأ يحدثني عن نفسه فعرفت أن أباه تاجر مستور يملك محلا تجاريا في أحد أحياء القاهرة وأن أمه ربة بيت خريجة أحد المعاهد المتوسطة وأن له اختين إحداهما كيميائية ومخطوبة لمهندس شاب والأخرى ما زالت طالبة بالجامعة، وأن أسرته يسودها جو من المودة والتفاهم حيث يشترك الجميع في مناقشة أمور العائلة بحرية وفسرت بذلك قوة شخصيته وبأنه اعتاد الاعتماد على نفسه منذ الصغر ويعمل في الإجازات الصيفية بتشجيع من أبيه وأمه..

وحدثته عن أسرتى فعرف أن أبي مدير إدارة بإحدى المصالح الحكومية لا يملك سوى مرتبه وأنه كافح بهذا المرتب ليوفر لنا بصعوبة مطالب الحياة الأساسية وأن على شقيقين على وشك إنهاء دراستيها الجامعية.. وأن أمى ربة بيت متعلمة تكرس حياتها لتدبير شئون بيتها بالحيلة والحرمان أحيانا..

وتعاهدنا على الارتباط وصارحني بأنه لن يستطيع أن يتقدم لخطبتي قبل أن تخطب شقيقته الأخرى بعد شهور خاصة وأن هناك من ينتظر تخرجها ليتقدم لها وقبلت الانتظار لكني أبلغته أني سأحيط أمي علما بكل شيء لأني لم أعتد أن أخفى عنها شيئا وشجعني على ذلك وأبلغني أنه لن يطلب مني الخروج معه وسيكتفى خلال شهور الانتظار باللقاء اليومي بيني وبينه أمام الزملاء إلى أن يتقدم لخطبتي حتى لا يفعل شيئا يضطر للتخفي به عن أحد أو يسيء إلى سمعتي.. وشكرته على ذلك وأصبح يعتبر نفسه مسئولا عني في العمل وأعتبره أنا كذلك وجاءت أجازة الصيف فأبلغني سعيدا أن شقيقته الصغرى قد نجحت وأن أحد أقاربه سيطلب يدها قريبا، وبعد أسابيع أخرى جاءني مستبشرا ليبلغني أنه قد تمت قراءة فاتحتها وأنه يجد أن من واجبه الآن أن يتعرف بأبي أولا ثم يعود مع أسرته ليطلب أبوه يدي من أبى وأحسست بوخزة في صدري فسرتها بأنها من شدة الفرح..

وبعد أيام جاء لزيارة أبي وتعرف به وارتاح له أبي كثيرة وتسرب خبر زيارته لأسرتي إلى الزملاء في الشركة فهنأونا جميعا ما عدا الزميلة إياها فقد تحرشت بى وتجاوزت عن إساءتها لي صابرة ورفضت أن أكتب شكوى ضدها.. فإذا بها تطلب نقلها من الإدارة وتأتي لى بعد يومين معتذرة ومتمنية لى حظا سعيدة فشكرتها وتمنيت لها نفس الشيء.

وبعد أيام تكررت آلام الصدر فاستعنت عليها بالمسكنات بلا جدوى، ثم شكوت لأمي منها فتحسست موضع الآلام في صدرى واسترابت فيها وصحبتني على الفور إلى عيادة طبيبة تقع في نفس العمارة ففحصتنى باهتمام وكتبت لي بعض الأدوية وألحت على أمي في ضرورة عرضى بدون إبطاء على طبيب كبير متخصص حددته لها بالاسم فتوجهنا إليه وطلب الطبيب الكبير أشعات وفحوص عديدة وأدرك بفطنته أننا غير قادرين على تكاليفها فأمر بإجرائها في المعهد المختص بعلاج هذه الحالات تحت إشرافه وعدت للعمل بعد يومين فسألني زميلي عن سر غيابى فصارحته به فاكتأب وحاول أن يشد من أزري لكني كنت قد استسلمت لمشيئة ربي وبدأت أتردد على المعهد في مواعيد منتظمة وأتلقى علاجا منهكا، وبعد أيام لم. أعد قادرة على العمل وقدمت استقالتي لأني موظفة بعقد وليس من حقي الحصول على أجازة وقبلها رئيسى أسفا وهو يؤكد لشقيقي أنه يرحب بعودتي للعمل في أي وقت بعد شفائي إن شاء الله. وقام بزيارتي مع زملائي وزميلاتي وأصبحت أقضي كل وقتي في البيت لا أغادره إلا إلى المعهد أو إلى عيادة الطبيب وأمضى وقتا طويلا في الفراش واستبدل أبي معاشه الذي كان يدخره لزواجي ليوفر لى مطالب العلاج الضرورية. ومن حين لآخر يتصل بي فتاى تليفونيا ويطمئن على صحتي ويسألني أو يسأل شقيقي عن تطورات الحالة وما يقوله الطبيب ويتمنى لى الشفاء العاجل.

ثم اشتدت الآلام وساءت حالتي كثيرة فأدخلني الطبيب الكبير المعهد وخضعت لعلاج مكثف وانقطعت عني أخبار فتاى فلم تعد أمى تهمس لي بأنه قد سأل عني تليفونيا.. وبدأ الجميع يتجنبون الإشارة إليه ففهمت الحقيقة القاسية، ولم أستطع رغم آلامي أن ألومه عليها، فقد تخيلت معارضة أهله له في الارتباط بفتاة مثلي.. وأدركت أنه غير قادر على إغضاب أهله.. أو الاستمرار في إحياء أمل موهوم في قلبي وطالت إقامتي في المعهد.. ثم قرر الطبيب أن العلاج لم يحقق النتيجة التي رجاها وأنه لم يعد هناك مفر من الجراحة التي حاول بكل جهده أن تكون الخيار الأخير مراعاة لظروف كفتاة في سن الزواج، وطالبني بأن أكون شجاعة في تحمل الموقف لأن شجاعتى ستساعدني على قهر المرض، ثم سألني أمام أبي وأمي عن رأيي في إجراء الجراحة مع ما ستحمله لي من مكروه تكرهه أى فتاة في مثل سني وهو استئصال الثديين... ففكرت في الأمر قليلا ولم يكن هذا المصير بعيدا عن توقعي منذ البداية ثم قلت له:

إني راضية بقضائي وبها أراده الله لي وأتقبل مشيئته بلا اعتراض وأوافق على إجراء الجراحة ولم أبك في البداية.. لكني رأيت دموع أبي تتساقط كالمطر. وأمي تسنده ليجلس على المقعد قبل أن يتهاوى وتحاول أن تخفف عنه..

وكانت المرة الأولى التي أراه يبكي فيها وهزني مرآه منهارا وهو الرجل الصابر على أنواء الحياة. فانسابت دموعي ساخنة وغادرنا الطبيب وهو يردد أن «هذا ليس ما اتفقنا عليه وما يريده منى» وبدأ الإعداد للجراحة ولا أريد إيلامك بالتفاصيل الكثيرة قبل الجراحة وبعدها فالمهم هو أن عناية الله قد رافقتني وخففت عني الكثير ونجحت الجراحة بفضل الله ومهارة الأستاذ الكبير الذي أجراها لى وقد قال لي بعدها «يا بنتي لقد أجريت هذه الجراحة لكثيرات غيرك ولم أتردد في إجرائها لأحد كما ترددت معك لأني كنت أحس أني أكاد أقضى بها على آمالك في الزواج.. لكن لا تنسي أبدا أن ربنا كبير وفوق كل شيء..» فقلت له باسمة وشاكرة ودامعة: ونعم بالله يا سيدي.. ونعم بالله.. والشكر لك.. فربت على كتفي وانصرف.

وانتهت فترة ما بعد الجراحة في المعهد وعدت إلى بيتي بعد شهور طويلة ورحلة أطول من الآلام انتهت معها إلى الأبد أحلامي الجميلة في العش الصغير الذي يجمعني مع من أحببت... وقوبلت عند عودتى للبيت بمظاهرة فرح من الجيران الطيبين وأسرة البواب وكل الأهل والأصدقاء..

وبدأت الصديقات يتوافدن على زيارتي كل يوم، واكتشفت أني «غالية» عند كثيرين فالجميع يبتسمون في وجهى كلما رأوني في الشرفة أو في النافذة... والأطفال يشيرون إلى من الشارع وهم يلعبون سعداء.

وأمي تحيطني بحنانها.. وأبي كذلك وشقيقاى كفا تماما عن مشاكستي كما كانا يفعلان أحيانا ونسيا اسمي فلم يعودا يناديانى سوى «بيا جميل» و «يا قمر» و «يا أمير» ياللي طول عمرك مستحملنا وعمرك ما زعلتنا ولا زعلت حد! وأنا مندهشة وسعيدة في نفس الوقت بكل هذه المشاعر.

وفي أصيل كل يوم أجلس في الشرفة أسمع الموسيقى.. وأقرأ في كتاب وأتفرج على ما يجري في الشارع.. وأسرح إذا رأيت شابا وفتاة وأتمنى لهما السعادة وألا تحول بينها الحوائل «وأتذكره» فأرتاح أحيانا حين أستعيد صورته في خيالي.. وألومه قليلا في أحيان أخرى.. ثم أنظر إلى فستاني المتهدل فوق صدري الخاوي فيتبخر لومي له في الحال.. وأفكر قليلا في طريقة لمعالجة فساتيني بحيث تخفي قليلا تهدلها في منطقة الصدر ثم أجد نفسي أقرر ألا أغير شيئا وأن أرضى بحياتي كما هي وأشكر ربي أن نجانى مما هو أكبر من ذلك..

وبعد شهر من عودتي للبيت كنت جالسة في الشرفة حين دق جرس الباب فنهضت لأفتحه.. وفتحته وأنا أتوقع زيارة من إحدى صديقاتي، فإذا بي أتوقف مذهولة وأنا «أراه» واقفا أمامي ومعه رجل كبير السن تشع الطيبة من وجهه وسيدة محترمة المظهر وفتاتان في سن الشباب والجميع ينظرون إلى باسمين.. وأنا عاجزة عن الكلام حتى قال الرجل الكبير: أنت فلانة؟ هل تسمحين لنا بالدخول؟

فتراجعت مرتبكة ودعوتهم للدخول ورحبت بهم وجاء أبي وأمي وأدركا الموقف على الفور فتقدم أبي من الرجل الكبير يرحب به بانفعال شديد وتقدمت أمي ترحب بالسيدة المحترمة وبالفتاتين وبالشاب بحرارة أشد ودخل الجميع الصالون.

وبقيت أنا في الصالة ذاهلة وبعد قليل جاءت إلى أمي في انفعال تطلب مني أن أصلح من شأني بسرعة وأدخل فأشرت لها إلى صدرى متسائلة فقالت لي إنه يعرف كل شيء وأسرته كذلك ويعرف بالجراحة وما تم، وأسرعت للمطبخ تعد شرابة للضيوف فنظرت لوجهي في مرآة الصالة ورتبت شعرى سريعا ودخلت إلى الصالون فأبلغني أبي والفرحة تتقافز في وجهه أن « الوالد الكريم » قد خطبني لابنه فلان، فتولاني الخجل وحاولت أن أتكلم فلم أنطق سوى بكلمة « لكن » فقاطعني والده في رفق وهو يقول: «لا تقولي شيئا فنحن نعرف كل شيء والصحة والمرض من عند الله وأنا رجل مؤمن بالله وأب لفتاتين في مثل سنك وما حدث لك قد يحدث لأي منهما فلا تتحدثي في هذا الموضوع وثقى في الله دائما. ولم أدر بنفسي إلا وأمه تجذبني إليها لتقبلني وتهنئنى وشقيقتاه كذلك.. أما «هو» فقد ظل مطأطأ الرأس محرجا حتى أمرته أمه أن يبارك لخطيبته ويجلس بجوارها فجلس إلى جوارى ومد يده يصافحني وهو يقول لي بصوت خافت: أرجو أن تسامحيني على تأخري في الحضور، فلم أتمالك دمعة تسللت من عيني وأنا أجيبه هامسة المهم أنك قد جئت وهذا يسعدني، وقرأ أبي الفاتحة مع أبيه وأمضت الأسرة معنا جلسة طويلة أحسست بعدها أن شهور المعاناة الطويلة قد تبخرت كلها في الهواء وتمت الخطبة بعد هذه الجلسة السعيدة بأسبوعين وأنا الآن أستعد لعقد قرانى والزفاف على من أحب ومن اختارني رغم كل تلك الظروف بعد ثلاثة شهور. فما رأيك يا سيدي في قصتي وهل تستحق أن يقرأها أصدقاؤك المهمومون وأن يجدوا فيها بعض ما يبث الأمل في نفوسهم؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة الجميلة أقول:

كلاكما يستحق الآخر عن جدارة ويحق له أن يفخر به ويسعد معه فأنت تستحقينه بروحك الوادعة الراضية بكل ما تحمله إليها الأقدار ولابد أن تنعكس هذه الروح الطيبة الأسرة على صاحبتها جمالا وصفاء ونقاء وحسن معاشرة لرفيق حياتها ولكل البشر من حولها، وهو يستحق بنفس الدرجة برجولته وشهامته وأمانته ووفائه وترفعه فوق الصغائر فكأنما قد خلق كل منكما للآخر، وظل يبحث عنه إلى أن اهتدي له وسكن إليه تماما كما في الأسطورة الإغريقية القديمة التي زعمت أن البشر في بدء الخليقة كانوا كائنا واحدة يضم الذكر والأنثى معا ثم غضبت عليه الآلهة فقسمته نصفين رجلا وامرأة وحكمت على كل منهما بأن يبحث عن نصفه الصحيح إلى أن يجده ويلتحم به فيعود إنسانا سعيد كاملا كما كان، وقضت على التعساء من البشر بأن يخطئوا الطريق إلى أنصافهم الصحيحة ويلتحموا بالأنصاف الخاطئة التي لم تُخلق إلا لهم فيشقوا بها.

ولا شك أن كليكما قد اهتدى إلى نصفه الصحيح وسوف يسعد به ومعه حتى النهاية بإذن الله، وجنة الأرض يا آنستي هي راحة النفس والضمير واطمئنان القلب.. وهي واحة عزيزة المنال لا يدخلها إلا من تطهر قلبه من الأحقاد والسخط والدنايا وكراهية الآخرين والحياة، ومن شهوة الرغبة في إيذاء الغير وإيلامهم والانتقام منهم واغتصاب حقوقهم.. ولا يقترب منها إلا من يؤمن بخيرية الحياة ويرعى حدود ربه ويتقبل كل أنواء الحياة ويتعلق دائما بالأمل في رحمة الله ويدعو ربه دائما أن يكون ما قد ناله مما يكره مقدمة لما يحب ويرجو، وأن تكون أحزان الحياة عابرة وسرورها مقيم وان يعوضه ربه عما أصابه من ضر خيرا أعم وفضلا أبقى..

ولا شك أنك قد ملكت أحد مفاتيح هذه الواحة الآمنة حين تقبلت بشجاعة وبنفس صابرة راضية كل ما جرت به المقادير وأعفيت الجميع من اللوم على ما نالك من آلام واستمسكت بالثقة في الله والأمل في رحمته فلم تلبث أن تكشفت لك نتائجه الخيرة بعد حين..

إن رسالتك هذه ليست جديرة فقط بأن يقرأها الأصدقاء ويستمتعوا بمعانيها السامية بل وبأن يتفكروا فيها طويلا وأن يتذكروها كلها ضاقت حولهم حلقات الهموم وتصوروا ضيقا ويأسا أنه لا مخرج لهم من سجن الأحزان.

فشكرا لك عليها.. ولتكن سعادتك حقيقية ودائمة كما كانت جروحك أيضا حقيقية وغائرة وليكلل الله رحلتك في الحياة بالسعادة والأمان والسلام حتى النهاية إن شاء الله.

∞∞∞∞∞∞

نـهر السعادة والشقاء!

لست أستطيع للأسف أن أتذكر تفاصيل كثيرة عن طفولتى فكل ما بقي منها هو أني كنت الأخت الصغرى لشقيقين يكبراننى بسنوات قليلة وأن والدي كان يعمل بوظيفة صغيرة بالسكة الحديد وكنا نعيش في أحد الأحياء الشعبية حياة صعبة، إذ أنه إلى جانب ضآلة مرتب أبي فقد كان مبتلى بشرب الخمر ولا يعود للبيت إلا ونحن نيام فنصحوا كل ليلة على صوت الشجار بينه وبين أمي ويختتمه غالبا بضربها أمامنا وأحيانا بضربنا نحن أيضا معها، والتنكيد علينا قبل أن نعود للنوم ثم نصحوا في الصباح فلا نجده.

وبطبيعة الأطفال ننسى الأسى سريعا فقد كنا ننسى ما حدث خلال الليل ونشارك أطفال الجيران البسطاء لعبهم ولهوهم. ومضت الأيام هكذا إلى أن جاءت ليلة انتظرنا عودة أبي فلم يعد فسهرنا طويلا ننتظر عودته كأنما تعذر علينا النوم بدون جرعة النكد الليلية، ثم غلبنا الإجهاد ونمنا.. وصحونا فوجدنا أمى ترتدي ملابسها وتستعد للخروج للبحث عن أبى، وغابت عنا طوال النهار ثم عادت وحيدة مجهدة في المساء وظلت أياما عديدة تخرج في الصباح للبحث عن أبي والسؤال عنه في عمله وفي كل الأماكن التي يتردد عليها ثم تعود منهوكة القوى يائسة ولست أذكر كم من الزمن ظلت أمي تبحث عن أبي ولا كم كان عمرى وقتها لكن فترة البحث لم تكن على أية حال طويلة، فلقد وجدت أمي نفسها مسئولة عن إطعامنا فيئست سريعة وخرجت تبحث عن قوتنا الضروري. وانتهى بها المطاف إلى العمل في تنظيف شقق الأجانب بحى الزمالك، واستمرت في هذا العمل سنوات وكنا نحن الأبناء الثلاثة تلاميذ بالمدرسة الابتدائية بالحي الشعبي، وكان شقيقي الأكبر دائم الشجار والهروب من المدرسة وكثير المشاكل مع الجيران بينما كان أخي الأصغر منه هادئة وميالا للصمت والشرود ومتخلفا دراسية، وذات يوم عاد شقيقي الأكبر من المدرسة وحيدا بغير شقيقه فتصورنا أنه مشغول باللعب مع أطفال الجيران أو أنه اختفى لفترة لكي يستدر عطفنا واهتمامنا لكن غيابه طال.. ثم استمر.. ثم لم نره بعدها أبدا ولم نعرف ماذا صنعت به الدنيا بعد ذلك.

وكما خرجت أمي ذات صباح للبحث عن أبي خرجت مرة أخرى للبحث عن أخي وطافت بأقسام الشرطة والمستشفيات وعادت بنفس الخيبة والحسرة. ومرضت أمي حزنا على هذا الإبن الهادئ الذي لم نكن نحس بوجوده وهو بيننا، ولم يعنها على مقاومة مرضها إلا اضطرارها للخروج مرة أخرى لكسب قوتها وقوت من بقي بين أيديها من أبنائها.

ثم سحبت مشاكل الحياة ذيول النسيان تدريجيا على ذكرى هذا الأخ الطيب الذي لم أعد أعي جيدا ملامح وجهه كما سحبتها من قبل على ذكرى أبي.. وعلى ملامحه أيضا! ولا أعرف كم مضى من الزمن بعدها حين انتظرنا عودة أمي نفسها ذات مساء فلم تعد وإنها جاء إلينا أحد الجيران وأبلغنا بأن أمي لن تعود هذه الليلة.. لأنها ستبيت ليلتها في قسم الشرطة. فقد هاجمت شرطة الآداب الشقة التي تعمل بها كخادمة وأخذتها مع من أخذت من الشقة..

وأصبحت أنا وشقيقي المشاكس وحيدين تماما وتكفل الجيران الطيبون بإطعامنا لعدة أسابيع ثم اصطحبنا أحد الجيران إلى إحدى دور الرعاية ليودعنا فيها فرفضت الدار قبولنا وعاد بنا مرة أخرى. وعرفنا بعد ذلك أن أمي قد حكم عليها ظلما وعدوانا بالسجن لمدة سنة.. وعشنا شهورا بعدها لا أعرف كيف مضت ولا كيف كان قوتنا يأتينا. فقد ترك أخي المدرسة وأصبح يغيب طوال النهار ومعظم الليل في رفقة صبية فاسدين ثم يعود أحيانا ومعه بعض النقود، لكن الحال لم يستمر طويلا وأودعته الشرطة إحدى دور الأحداث وبقيت أنا بمفردي لدى جارة طيبة وكنت تلميذة في السنة الرابعة الابتدائية فعشت معها حتى نجح جارنا الذي اصطحبنا من قبل في إدخالي دار الرعاية. وانتقلت لهذه الدار وداوم الجار الطيب على زيارتى والاطمئنان علىّ لفترة ثم شغلته شواغل الحياة فانقطعت زياراته.

وواصلت تعليمي في الدار حتى حصلت على الإعدادية ثم توقفت عن الدراسة وبدأت أساعد في أعمال التفصيل والطهي بالدار حتى قاربت الثامنة عشرة.. أين كان أخي المشاكس خلال هذه الفترة؟ لا أعرف.. ماذا فعلت أمي بعد خروجها من السجن ولماذا لم تبحث عنى وتزرنى أو تحاول إخراجي لأعيش معها؟ لا أعرف.. لقد تكيفت مع الحياة في الدار ووجدت لي فيها أخوات وصديقات وحيدات مثلي فنشأت هادئة راضية أتقبل كل شيء بلا سخط ولا لوم لأحد فهذا هو قدرى ولابد أن أقبل به وأشكر ربي عليه.. وأعرف لكل إنسان ساعدني حقه وأحمل له الحب والعرفان. فخفف ذلك عنى الكثير.. فعشت لا أكره أحدا وأحس بالوفاء لمن تعهدتني بالتربية والرعاية من مشرفات الدار بل وأحس باطمئنان عجيب للحياة.. والمستقبل لا أعرف له تفسيرا حتى الآن وبثقة في أن الله لن يتخلى عني كأني قد نشأت في أحضان القصور وتحصنت للمستقبل بكل وسائل الأمان.

وكان الشائع هو أن تبقى الفتيات في الدار حتى يعملن ويجدن لأنفسهن حياة خارجها.. أو حتى يتزوجن، وكان بعض الأشخاص الذين يبحثون عن زوجات وراءهن قصة شقاء تجعلهن أكثر صبرا على مشاكل الحياة يتقدمون من حين لآخر لخطبة إحدى فتيات الدار، فإذا بتاجر أرمل في الأربعين من عمره وله ابن يدرس بالمرحلة الثانوية يتقدم لخطبتي بعد أن رآني. فتزوجته وأنا في الثامنة عشرة من عمري وسعدت به كثيرا ووجدت فيه زوجا طيبا عطوفا عوضني بحبه وعطفه عما حرمتني منه الحياة في طفولتي وصباى. ولم أنجب منه فرجوته أن أستكمل تعليمى ورحب بذلك وشجعني عليه.. وبدأت أدرس للحصول على الثانوية العامة من منازلهم، ووفقني الله في الحصول عليها بمجموع يعد معجزة بالنسبة لطلبة المنازل. وقبلتني بمجموعى الكبير إحدى كليات الطب: فكدت أطير فرحة وسعد زوجى بذلك سعادة كبرى ووفر لى كل ما احتجت إليه من مراجع وأدوات خلال دراستي، وراح يشد من أزرى ويكافئني على النجاح كل سنة وهو فخور بى، ووفق الله ابنه الوحيد في دراسته فتخرج في كلية الهندسة وتزوج، وتقدمت أنا في دراستى حتى بلغت سنة الامتياز فإذا زوجي يمرض مرضا أقعده في الفراش ولم يطل به الرقاد ولبت روحه الخيرة نداء ربها وأنا في التاسعة والعشرين من عمرى بعد أحد عشر عاما من زواجي منه. وحزنت عليه كثيرا وافتقدت طيبته وعطفه ووجدت بعض سلواى

في ابنه وزوجته الشابة التي أصبحت أختا وصديقة لي. وبميراثي عن زوجي الراحل افتتحت عيادة صغيرة لي في حي شعبي وأصبحت أعمل في المستشفى في الصباح وفي العيادة في المساء.

ومضت حياتى مطمئنة.. وكلما اقترب مني أحد الزملاء وفاتحني برغبته في الارتباط بى ووجدت من نفسي استعدادا لقبوله صارحته بكل ظروف حياتي السابقة بصراحة فيكون رد فعله هو تركى والاعتذار لي عن عدم استكمال المشوار بأي عذر واه، وتكررت القصة معي أكثر من مرة وكنت أعرف بالطبع السبب الحقيقي وراء فرار الجميع منى، فصرفت نفسي عن فكرة الارتباط واكتفيت بذكرياتى الجميلة عن زوجي الراحل وبصداقة ابنه وزوجته لي وصداقة بعض زميلات الكلية. ثم سمعتهم يتحدثون في المستشفى ذات يوم عن طبيب أخصائي حاصل على الدكتوراه من الخارج التحق بالعمل حديثا، ثم رأيته في المستشفى بعد فترة فوجدتني أعرفه فقد كان زميلا لى بالكلية ويسبقني في الدراسة بأربع سنوات وكان دائما يحاول أن «يتحدث» معي ثم توقف عن محاولاته حين عرف أني متزوجة فتعجبت لهذه المصادفة الغريبة. وكان طبيعيا أن أرحب به وأن يبدو هو سعيدا بالالتقاء بي مرة أخرى في عمل واحد بعد كل هذه السنوات، ثم.. لا أطيل عليك فلقد تقاربنا وفاتحني برغبته في الارتباط بي فبادرته بسرد كل ظروفي عليه بكل تفاصيلها المؤلمة فكان رد فعله المختلف أن ازداد تمسكا بي واحتراما لي. وحقا يا سيدى فإذا جاء نصيب الإنسان من السعادة فإنه لا يحول دون وصوله إليه حائل. فلقد تزوجنا وعوضني الله بزوجي سنوات الترمل والوحدة وذكريات الماضي البعيد وأنجبنا طفلا عمره الآن خمس سنوات، وحياتنا تمضي والحمد لله في حب وسعادة وتفاهم ولقد قررت أن أكتب لك قصتي لتشد بها أزر أصدقائك المهمومين وأنا جالسة بين أسرتي الصغيرة في مكان يطل على النيل خلال توقفنا ونحن في الطريق لإحدى المدن الساحلية لقضاء أجازة الصيف.. فلقد وجدت نفسي أنظر إلى وجه زوجي الحبيب المبتهج بإحساس الأجازة بعد عناء العمل ووجه طفلي المحبوب المبتهج بالسفر والرحلة وصحبة أبويه ثم إلى منظر النهر الخلاب الذي يسبح فوقه ورد النيل وأحسست بسعادة لا توصف ولهج قلبى ولسانى بحمد الله وشكره وبالدعاء له أن يحفظ علىّ سعادتي.. وأن يفرج كروب كل المهمومين كما فرّج كربي وعوضني عن حرماني ووحدتي وشقائي.. وما أن استقر بنا المقام في المدينة الساحلية حتى كتبت لك لأقول بقصتي للمهمومين - الذين تضيق بهم الحياة - إن فرج الله ليس ببعيد وإن دوام الحال من المحال. ولا بد أن يأتي يوم يفرج الله فيه كروب القانطين إن شاء الله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

«إنما يتقبل الله من المتقين» فليتقبل منكِ إذن دعاءك لنفسك ولأسرتك، ورغبتك النبيلة في مواساة المهمومين بقصتك الفريدة هذه بالرغم مما تحمله من تفاصيل قد يتعمد آخرون نسيانها وكتمانها لكن هذا يا سيدتي هو الفارق بين من تسكن المرارة

قلبه فتفسد عليه استمتاعه بالحياة حتى ولو أتته ثمارها، وبين من يخلو قلبه منها وتصفو نفسه للحياة ولا يرى في ظروفه التي فرضت عليه في الماضي ما يعيبه أو يسيء إليه.

إنك تقولين: إنك كنت وأنت تواجهين الحياة وحيدة منقطعة الجذور تحسين اطمئنانا عجيبا للحياة والمستقبل كأنما قد نشأتِ في أحضان القصور. ولا تجدين في ظروفك السابقة ما يبرر لكِ هذا الاطمئنان الغريب ولا تعرفين سره. لكني أجد سره في خلو قلبكِ من الأحقاد والسخط وفي رضائك بكل ما حملته إليك المقادير.. وفي تطلعك الدائم إلى رحمة ربك وعدله، وفي عرفانك بفضل كل من قدم إليك يده، واستشعارك لقيمة أتفه الأشياء في حياتك واعتبارها خطوة كبيرة للأمام قياسا على ماضيكِ التعس. وهذه هي القصور الحقيقية التي يجد الإنسان سعادته فيها إذا أراد أن يعفى نفسه من المعاناة والشرور واتهام الآخرين. إن هناك مثلا تشيكيا يقول: إذا كانت المرارة في القلب فليس يجدى السكر في الفم! ولقد أنعم الله عليكِ باستشعار مذاق السكر في القلب والفم والعينين.. فنظرت حولكِ فوجدتِ كل شيء جميل ويدعو للسعادة والابتهاج، كأنها تشاركين بذلك الشاعر الفيلسوف طاغور رأيه في «أن الكائنات جميعا إنما خلقها ابتهاج الله وسروره اللذان لا حد لهما»، «وفي أن مهمة الحياة هي الإصلاح وتفادي الأخطاء وعلاج الشرور وعلينا أن نتقبل الحياة بنواقصها بنفس راضية حتى نصل إلى الخير»..

لهذا فوجه زوجك مبتهج وسعيد ووجه طفلك يدعو للابتهاج والسعادة ومنظر النيل بالقرب منك لوحة من لوحات الجمال... حتى ورد النيل الذي يتأذى آخرون من رؤيته عندك رائع وجميل. لأن البهجة والجمال والسعادة إنها تنبع كلها من داخل الإنسان وليس من خارجه «وكن جميلا ترى الوجود جميلا» كما يقول الشاعر وكن كارها متسخطا ترى كل ما حولك يبعث على الشكوى والضجر والسأم، أما كلماتك عن زوجك الأول فإنها تعكس قيم الوفاء والأخلاق والدين.. وأقولها عامدا لأن كتمان الشكر لمن قدم لنا الفضل كفر كما جاء في مضمون الحديث الشريف المعروف، ولأن «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» كما جاء في الحديث أيضا، فإن كنت قد توقفت طويلا عند شيء آخر في قصتك.. فهو أمام هذه السهولة المؤلمة التي ينفرط بها عقد بعض الأسر في قاع المجتمع فيختفى بعض أفرادها في المجهول ويسقط البعض الآخر في هاوية الضياع ويواجه البعض الثالث الدنيا كما يواجهها غيرهم من يتامى الحياة الذين لا يعني وجود الآباء والأمهات حتى - لو وجدوا - عنهم شيئا وبالرغم من أنك قد واجهت كل هذه الظروف المؤلمة فلقد حمتك العناية الإلهية من غوائل الحياة وهيأت لك نجاحا واستقرارا وسعادة وكان فضل الله عليكِ عظيما فحق لكِ أن يلهج قلبكِ ولسانكِ بالشكر والدعاء وحق لنا أن نشكركِ على أن رويت لنا قصتك ليجد فيها بعض المهمومين عزاءهم وسلواهم... » فعسى أن تحمل لهم هذه الرسالة.. وعسى أن تقرأها صاحبة قصة «الأرض الخراب» لتعرف مرة أخرى أن ذكريات الطفولة المريرة ليست مبررا لإيذاء الآخرين والحقد عليهم وأن تحاول أن تكفر جرائمها في تخريب النفوس والبيوت واتهام الزوجات المحصنات بإصلاح ما أفسدت وإبراء ذمتها وضميرها مما فعلت بالاعتراف للأزواج الذين

خدعتهم بها ظلمت به زوجاتهم.. لعل الله يغفر لها... ويهيئ لها من أمرها رشدا وشكرا.

∞∞∞∞∞∞

نظرة الحزن

حصلت على الثانوية العامة ولم أعمل.. فتقدم لخطبتي شاب عن طريق أحد المعارف فوجدته لطيفا رقيقا لكني لاحظت في عينيه نظرة حزن وانكسار غريبة على شاب في مثل سنه واستسلاما واضحا للأقدار فزادتني هذه النظرة الحزينة تعلقا به وقبلت الارتباط به.

ثم فوجئت به يرفض أن تكون لنا فترة خطبة معقولة لكي يتعرف كل منا على الآخر ويزداد فهما له، ويصرّ على عقد القران والزواج بعد فترة قصيرة وترددت قليلا في الموافقة على ذلك لكني كنت قد انجذبت إليه تماما فتم الزواج بعد وقت قصير. ولفت نظري خلال إجراءات الزواج كما لو كان كل من حوله يعرفون شيئا ويخفونه عني.. وكما لو كان هو مخدرا يمضي في طريقه بلا مقاومة ولا ابتهاج في نفس الوقت وتزوجنا وأكدت لى العشرة أنه إنسان طيب هادىء منطو على نفسه ومع الأيام عرفت الشيء الذي أحسست أن الجميع كانوا يعرفونه وهو و أنه كان يحب إحدى قريباته حبا طاغيا منذ تفتحت مداركه للحياة وأن تعلقه بها كاد يودى به حين تزوجت غيره، فأصيب بصدمة عصبية عنيفة، وبعد بضعة شهور من زواجها، أشار عليه الأهل بأن يتزوج ليخرج مما هو فيه وهداهم البعض إلىّ فجاء يخطبني وتألمت كثيرا حين عرفت ذلك لكني كتمت الامي وقررت بيني وبين نفسي أن أجعله ينساها بحبي له وحرصي عليه وأملت أن ينشغل بمجيء الأبناء ومشاكل الحياة عنها، وجاء الأبناء واحدا بعد الآخر وأنجبت ثلاثة بلغ أكبرهم الآن الخامسة وأصغرهم الثانية من عمره، ومضت حياتنا بلا أزمات حادة.

ثم حدث تطور هام منذ بضعة شهور فقد مات فجأة زوج تلك السيدة التي تزوجنا نحن على إثر زواجها منه، لينساها، بعد زواج قصير لم يدم بينها سوى عدة سنوات وترك وراءه طفلين صغيرين:

وكانت كارثة عائلية التف خلالها الجميع حول الأرملة الشابة الحزينة ومن بينهم زوجي بالطبع، الذي كان أكثرهم اهتماما بها. ولاحظت شدة هذا الاهتمام والانشغال بها، ولفتّ نظره إليه فنهرنى بشدة بدعوى أنها في محنة، ومن الواجب أن يقف معها الجميع بكل مشاعرهم، وتأججت نيران الغيرة في داخلي وكتمتها وتحاملت على نفسي لكيلا تتصاعد الأزمة، ثم فوجئت به بعد شهور من وفاة زوجها يتقدم إليها عارضا عليها الزواج فترفضه مرة ثانية!

وبقدر ما حزنت وفجعت في زوجي الذي فعلت المستحيل لإسعاده وإرضائه بقدر ما سعدت بموقف هذه السيدة التي رفضت أن تهدم بيت زوجة لها أبناء صغار كأبنائها وحملت لها في قلبي الامتنان والشكر، ولم أعرف ماذا أفعل ولا كيف أتصرف، وفي غمار حيرتي هذه انهار زوجى فجأة وسقط صريعا للمرض النفسي وتولاني الخوف الشديد وأنا أراه يذوى يوما بعد يوم، ولم أقف عاجزة فاصطحبته إلى كبار الأطباء النفسيين فقالوا لي: إنه تعرض لهزة نفسية عنيفة ولا يشفيه منها الدواء وإنما علاج أسبابها، وعرفت من الأهل أن نفس هذه الهزة النفسية قد حدثت قبل ذلك حين

تزوجت غيره منذ عدة سنوات، واحترت يا سيدى ماذا أفعل لأحمي أطفالي الصغار من التشرد ولأنقذه من الاحتضار البطيء الذي يتسلل إليه أمامي.. وفكرت ثم عقدت العزم على شيء وصممت عليه. وذات مساء خرجت من بيتي إلى بيت تلك السيدة قريبة زوجي وجلست إليها وحدثتها حديث المرأة للمرأة ووجدتها سيدة عاقلة وجميلة ومحتشمة ومريحة في الكلام والتعامل، ثم استجمعت شجاعتي وطلبت منها أن تقبل رجائي الحار لها بأن تتزوج من زوجي!

فنظرت إلى مذهولة وفوجئت بأني أعرف القصة كلها، وبعد أن تغلبت على دهشتها اعتذرت بشدة عن عدم قبول طلبي فأعدت الرجاء وألححت عليها فيه فتمسكت بالرفض والاعتذار لأنها لا تريد أن تخرب عش أسرة صغيرة كان لها مثله منذ قليل، ولا تريد لطفليها الصغيرين من ناحية أخرى زوج أم. ثم هدأت خواطري تجاه زوجي وطمأنتني إلى انه سيشفى سريعة مما هو فيه وأحسست من حديثها أنها تحمل له حبا وإعزازا لكنها لا تريد أن تكون دخيلة على حياتنا وحياة أطفالنا، وعدت من عندها وقلبي يتعلق بالأمل في شفائه بالتدريج لكنى يا سيدى لا ألمس أي تحسن في حالته فهو مازال يذوى وينسحب إلى داخل نفسه ولم أعد أستطيع أن أراه مستسلمة بهذا الشكل الرهيب لهذا فإني أرجوك رجاء حارا أن تكتب لها باسمي واسم أطفالي الثلاثة وتناشدها بأعز ما تملك وهما طفلاها الصغيران أن تقبل الزواج من زوجي المسكين وأن تؤكد لها أني لا أعترض على ذلك و إنها أوافق عليه بكل مشاعري وأقسم على ذلك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من زوجي ومن حياتي وحياة أطفالي وأرجو ألا تهمل رسالتي هذه فهل تفعل؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لا يا سيدتي لن أناشدها أن تغير من موقفها رغم تعاطفي معكِ وإشفاقى عليكِ ما أكرهتك عليه الظروف القاسية، فإني أؤيد تلك الأرملة الكريمة في موقفها من رفض زوجك وأراه الموقف الصحيح في هذه الأزمة العصيبة، ذلك أن ما نحمله من مشاعر للآخرين لا يرتب لنا حقوقا عليهم إلا إذا كانت هذه المشاعر متبادلة بيننا، ومن الواضح أن هذه السيدة لم تستجب لمشاعر زوجك العاطفية قبل زواجها وأن حبه لها كان حبة من طرف واحد وإلا لما انصرفت عنه وتزوجت غيره، ولست أتفق معكِ في أنها تحمل له حبا بالمعنى العاطفي لهذه الكلمة وإنها هي في أغلب الظن تقدر له مشاعره تجاهها وتقدر له سجاياه كإنسان وقريب ولا تبادله حبا بحب، لهذا فإنى أضيف إلى أسبابها النبيلة لرفض الزواج منه تعففا عن الإسهام في تخريب عشك وتمزيق أطفالك الصغار هذا السبب الهام أيضا.

ولقد أخطأ زوجك في حقك منذ البداية حين أقام زواجه منك على أطلال حب فاشل لم يشف منه وأراد أن يلتمس في الزواج منك العزاء والسلوى عنه لأن الزواج هروبا من حال عاطفية أو مشكلة من مشاكل الحياة قبل مواجهتها وحلها يضعف من فرص نجاحه واستمراره ويسقط أسباب الأزمة إلى القاع لتظل كامنة فيه إلى أن تواتيها فرصة ملائمة للارتداد والظهور فتطل برأسها مرة أخرى وتهدد استقرار

الحياة وهذا ما حدث حين رحل عن الحياة زوج السيدة التي تمنى زواجها. وكان الأولى به أن يستعين بإرادته على الاقتناع بأنه ليس كل ما يتمنى المرء يدركه ويتيح لنفسه فترة نقاهة كافية من أزمته العاطفية قبل أن يرتبط بكِ، فالزواج ينبغي أن يطلب لذاته وليس هربا من مشكلة أو فرارا من مواجهة النفس ومغالبتها، وليس هناك عاطفة مهما بلغ عمقها لا يستطيع الإنسان بالإرادة وبالفهم الصحيح لحقائق الحياة وبالزمن أن يعين نفسه على الشفاء منها أو أن يردها على الأقل إلى حدودها الآمنة التي لا تعوق استمرار الحياة ولا تهدد اتزانه النفسي والعاطفي، « ومن ترك شيئا عاش بدونه » في النهاية كما قال يوما جمال الدين الأفغاني مشيرا إلى عزوفه عن الزواج..

وهناك دائما يا سيدتى منافذ لتصريف الأحزان.. في الاندماج في الحياة الاجتماعية ومساعدة الآخرين ومساعدة النفس على مقاومتها بتجنب ما يذكرها به، وبالإيمان بالله والثقة في النفس وفي خيرية الحياة وفي استشعار الواجب الإنساني للمرء تجاه أسرته، وأيضا في التعويض النفسي وأفضل ما يمثله هذا التعويض لزوجك هو أطفاله الثلاثة وأنتِ الزوجة المحبة الوفية التي قست عليها الحياة فأوقفتها موقف السائل والمناشد لسيدة أخرى أن تقبل الزواج من زوجها خوفا عليه وعلى أطفالها مما هو أمَرّ من مكابدة الغيرة.

هناك كل هذه المجالات التي يستطيع زوجك أن يجد فيها ما يعينه على الخروج من أزمته إلى جانب البدء فورا بعلاج نفسي جاد ومنتظم وبشرط أن يستنفر إرادته لمقاومة هذا الانسحاب العصابي من الأزمة بدلا من مواجهتها والقضاء عليها. لا بد أن يفعل ذلك لأن من لا يعين نفسه على مواجهة مشاكله لا يحق له أن ينتظر عون الآخرين، ولأنه ليس من صالحه أن يرهن حياته وسعادة أسرته الصغيرة واستقرارها على الوقوف طوال العمر على باب قريبته منشدا مع الشاعر العربي:

فلا أنا مردود بما جئت طالبا

ولا حبها فيما يبيد.. يبيد!

مع اعتذاري لكِ.. وأسفي من أجلكِ.. وأمل في أن يستعيد زوجكِ نفسه في أقرب وقت بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخط الأحمر!

أثارت شجوني وأحزاني رسالة «نظرة حزن» التي تحكي فيها كاتبتها عن أرملة كان زوجها يحبها قبل أن تتزوج، ثم أراد أن يتزوجها بعد رحيل زوجها فرفضت فاكتأب وانعزل عن الناس، وساءت حالته النفسية حتى خشيت عليه زوجته من المرض النفسي، فزارت تلك الأرملة لترجوها أن تترفق بزوجها وتقبل زواجه حتى لا يضيع نهائيا ويفقده أبناؤه، فرفضت السيدة الجميلة العاقلة المريحة مجرد التفكير في أن تكون سبب في هدم عش أسرة صغيرة. وأصرت على موقفها تاركة للأيام علاج جروح ذلك الزوج النفسية. وما أن انتهيت من قراءة هذه الرسالة حتى وجدت نفسي أتأمل موقف هذه الأرملة المحتشمة الكريمة وأقارن بينها.. وبين موقف سيدة أخرى سأروي لك قصتي معها.. وأتعجب وأتألم، فأنا سيدة تزوجت وأنا في سن السادسة عشرة من رجل كان يريد الزواج من أختي التي تكبرني بخمس سنوات، وكان معروفا بين الأهل منذ الصغر أنهما مخطوبان لبعضها وينتظران الوقت المناسب للزواج، ثم حدثت بعض المشاكل المتعلقة بالميراث بين أبي ووالد خطيب أختي فصرف النظر عن هذا الزواج ووقعت القطيعة بينهما..

وبعد فترة قصيرة خطبت شقيقتي لآخر وتزوجته، وبعد عدة سنوات قام بعض الأقارب بإزالة الجفوة بين المتخاصمين. فعادت المياه إلى مجاريها بينهما.. وأراد الأهل أن يؤكدوا عودة الوفاق فعرضوا على أبي أن يتزوجني ذلك الشاب الذي كان مفروضة أن يتزوج أختي لولا أن حدثت تلك الخلافات.. وضغط الأهل على أبى فوافق.. وسألتني أمي عن رأيي فيه، وكنت في السادسة عشرة من عمري فلم أجد مانعا من قبوله وخلال بضعة شهور تم الزواج وبدأت حياتي الزوجية معه ومضت سنوات العمر فأنجبت وسعدت ببعض أيام زواجي معه وشقيت بالكثير منها خاصة من ناحية أهله، وتوفى أبى وعلاقته بزوجى في الحضيض لأنه عذبني كثيرة، ثم مرضت أمي منذ فترة واشتد بها المرض فبدأت أتردد عليها كل يوم لأرعاها وأتولى خدمتها - ورأى زوجى أن نقيم معها في بيت الأسرة لكي نستريح من التشتت المستمر بين بيتى وبيتها، فانتقلنا للإقامة معها، وبدأت الشقيقات والأشقاء المتزوجون الذين تفرقوا في البلاد يأتون لزيارة أمهم المريضة والإقامة معها بعض الوقت، ومن بينهم بالطبع أختي التي كانت شبه مخطوبة لزوجي.. ولم أر في البداية شيئا غريبا في ذلك فقد مضى أكثر من عشرين سنة على زواجي وما يقرب من 25 سنة على زواج أختي، وزوجها رجل مثالي في كل شيء فهو على خلق ووسامة وحساسية ويراعي مشاعر زوجته ويحترمها، لكني لم ألبث أن لاحظت بعد قليل توثق الروابط بين أختى وزوجي وكثرة الضحك والسهر والأحاديث اللذيذة الطويلة بينهما، ولاحظت أن زوجى دائم التعبير عن إعجابه ورضاه عن كل عمل تقوم به أختي مهما كان تافها.. وحتى إذا كان لا يرضي هو عنه حين أقوم أنا به.. مع العلم أني أجمل منها وأكثر طيبة بشهادة الجميع!

كما بدأت ألاحظ أن شقيقتى دائمة الإشادة بزوجي وأهله أمامي وأمامه مع أني أعرف تماما أنها لو عاشرتهم لما تحملت المعيشة شهرا واحدا.. لكن البعيد حلو

دائما يا سيدى!

أما أم زوجى فهي لا تقصر هي الأخرى في الإشادة بجمال شقيقتي وذكائها أمامي.. ولا تكف عن تذكير زوجي بحبه القديم لها وتفسر كل كلمة مدح منه فيها بحبه لها وشقيقتى سعيدة بكل ذلك ولا تحس بأي غضاضة فيه، ولا تراعي مشاعر أختها التي تحبها وتضحى براحتها لرعاية أمها حتى لا تشغلها هي بهذا الواجب لأنها مقيمة في مدينة أخرى ومشغولة بعملها..

والكارثة أنني لا أريد أن أتكلم في هذا الأمر بوضوح حتى لا يزيد زوجي من عناده ويشرد أولاده ويعذبني.. ولو كان الأمر بيدي لتركته راضية لها لكن ذلك مستحيل لآلاف الاعتبارات والموانع وهي تعرف ذلك جيدا.. لكن البعيد مرغوب دائما يا سيدى.. وأنا أحترق في كل لحظة ولا أعرف ماذا أفعل.. ولا أستطيع مكابدة هذا العذاب إلى النهاية فبماذا تنصحني؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أسوأ ما يفعله الإنسان هو أن يرى شرر النار يقترب من أشيائه الثمينة سريعة الالتهاب ثم يكتفي بمكابدة القلق والخوف من الحريق الوشيك. وأظن أنك تفعلين شيئا شبيها بذلك الآن يا سيدتي.. فأنتِ لا حيلة لكِ فعلا في الظروف غير الطبيعية التي قاربت بين شقيقتك وزوجك بعد كل تلك السنوات، لكنك من ناحية أخرى تتخذين موقفا سلبية من الشرر المقترب ولا تفعلين شيئا لإخماده فإذا كانت دوافعك لعدم الحديث بوضوح مع زوجك في هذا الأمر خوفا من تماديه في العناد مفهومه، فماذا يمنعك من الحديث فيه مع شقيقتك بصراحة وبغير حساسية؟ إنها شقيقتك في النهاية وأنت تحملين لها مشاعر الحب والأخوة برغم كل شيء، وهي امرأة وزوجة وتفهم مشاعر المرأة حين تواجه وضعا شاذا كهذا الوضع فإن كانت قد نسيت نفسها بعض الشيء في أحاديثها « اللذيذة » الطويلة مع زوجك وفي السهر والضحك وتبادل الإشادة والمديح بينهما أمامك، وإذا كانت قد استنامت إلى التلذذ بإعجابه وبمداعبة الأحلام والمشاعر القديمة فلا بد من تنبيهها إلى أنها قد اجتازت الخط الأحمر الذي لا يجوز لزوجة وأم أن تعبره في علاقتها برجل غريب عنها مهما كانت صلتها العائلية به، وخاصة إذا كان هذا الرجل بالذات هو نفس الشاب القديم الذي كان مقدرا لها أن تتزوجه ثم شاءت الأقدار له أن يتزوج شقيقتها، ذلك أن هناك خيط رفيعة بين الألفة العائلية المحمودة بينها وبين أي إنسان من أفراد الأسرة وبين الإفراط في «الحميمية» مع أحدهم إلى الحد الذي يثير غيرة زوجته وشكوكها ويفسد عليها سلامها وأمانها.. بل إن التحفظ والاعتدال في تلك الحميمية إذا كانا مطلوبين من الزوجة مع كل الغرباء.. فهما أكثر ضرورة مع من كانت تربطها به علاقة قديمة قبل الزواج سدا لأبواب المتاعب وتجنبا للشكوك والظنون ورعاية للحرمات.

وأنتِ يا سيدتي من حقك على شقيقتك بهذا التحفظ والاعتدال.. حتى ولو كنت مغالية في شكوكك.. وحتى لو أدى الأمر إلى جفوة مؤقتة بينكما تستطيعين بحكمتك وبمشاعرك الأخوية الصادقة أن تعالجيها فيما بعد ولأن تتهمك بسوء الظن بها وبالإغراق في الوهم والشك أفضل كثيرا من أن تعجز عن الدفاع عن موقفها إذا تفاقمت الأمور، وظللتِ ترقبين سريان النار تحت الرماد إلى أن يندلع لهيبها عاليا ويتعذر تدارك الأمور بعد انفلاتها.. صارحيها يا سيدتي بكل ذلك، وترقبي ما سوف تفعل بعدها ولا تتيحي لها فرص استعراض مهاراتها وذكائها ومزاياها أمام زوجك، وحاولى لفت أنظاره بهدوء إلى مزاياكِ ومهاراتك ومؤهلاتك العديدة، وازدادى اقترابا منه لتشعريه بوجودك وبحرصك عليه فإن تمادت في غيها بعد تحذيرك لها فلا بأس بأن توسعى قليلا دائرة الضغط عليها للرجوع عما تفعل بإشراك بعض شقيقاتك معك في عتابها ولومها.. وإن كنت أستبعد أن تحتاجي إلى ذلك إذا كانت مشاعرك العائلية ما زالت سوية.. وإذا كانت الدنيا ما زالت حقا بخير كما نتمنى ونأمل إن شاء الله..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نقطة البداية!

اكتب إليك طالبا النصيحة.. وأن يقرأ الآخرون قصتي ويعتبروا بما فيها ويتحابوا ولا يتباغضوا فتفرق بهم السبل..

فلقد نشأت لأبٍ من كبار تجار المنسوجات في مدينة ساحلية وكنت الإبن الأول له بعد شقيقة تكبرني والأخ الأكبر لشقيقين يصغراني في السن، وقد تزوجت شقيقتي الكبرى من تاجر كبير يمارس نفس تجارة أبي.. أما الشقيقان فلم يكملا تعليمها وفضلا التجارة على التعليم العالي وعملا مع أبيها في تجارته الكبيرة في حين شققت أنا طريقي إلى الجامعة ونفرت من التجارة التي لم أكن مؤهلا لها وأكملت دراستي في كلية الهندسة بتفوق وحصلت على البكالوريوس وفرح أبي بذلك فرحة طاغية فكانت هديته لي عقب تخرجى هى مكتب في وسط المدينة لأبدأ فيه عملي الهندسي الحر وشقة واسعة مؤثثة بكل الكماليات لتكون جاهزة لمن يجمعني القدر بها في المستقبل وسيارة جميلة، وسعدت بكل ذلك وشكرت أبي عليه كثيرة.. واعتبرت نفسي من المحظوظين الذين أنعم الله عليهم بالكثير، وبدأت حياتي العملية بحماس فاستعنت ببعض زملاء دفعتى، وبدأنا نعمل معا بالحب والتعاون والرغبة المشتركة في تحقيق النجاح وبدأنا ننفذ عمليات صغيرة وفقنا الله فيها كلها وأنعم على بحب زملائي والعملاء ثم دخلنا في عملية أكبر فتعاونت فيها مع مكتب لمهندس كبير لحاجتنا إلى خبرته وإمكاناته. وترددت خلال ذلك على مكتبه كثيرا فتعلقت أنظاري فيه بسكرتيرته ولاحظت عليها لباقتها وحسن مظهرها وأدبها وحسن معاملتها للآخرين فوجدتني أتعلق بها من النظرة الأولى وسبحان من أودع القلوب أسرارها، ولأني أومن بأن الخط المستقيم هو أقصر مسافة بين نقطتين فقد فاتحت زميلي المهندس الكبير مباشرة برغبتي في الارتباط بسكرتيرته وسألته عن رأيه فيها فشهد لها بحسن الأخلاق. وأكد على أنها غير مرتبطة بأحد لأنها تعول شقيقتين تتعلمان في المدارس وأنها تعمل عنده منذ أربع سنوات كانت خلالها مثالا للأدب والالتزام الخلقي، وسعدت بهذه الشهادة ولم يفسد على سعادتى تحذير زميل لي من أن أبي ربما لا يوافق على زواجي منها لأنها من أسرة بسيطة، طمأنته إلى أن أبي الغائب الآن في الحج رجل يعرف ربه ولا تهمه مثلي سوى «الأخلاق والتدين».. أما الغني والفقر فمن أعراض الدنيا الزائلة وانصرفت سعيدة إلى أمي وصارحتها بالقصة ففاجأتني بأنها تعرف والد هذه الفتاة لأنه كان يعمل في تجارة أبي منذ سنوات طويلة قبل أن يلتحق بالعمل في إحدى شركات الغزل وأنه توفي تاركا ثلاث فتيات كبراهن فتاتي التي ما زالت تذكرها وهي طفلة صغيرة.. ثم توفيت الأم بعده بسنوات فتحملت خالتهن مسئولية الفتيات الثلاث إلى أن حصلت فتاتي على دبلوم التجارة وعملت وبدأت تتحمل مسئوليتها في تعليم شقيقتيها ورعايتهما..

ووجدت أمى راضية عن اختياري رغم الفارق الاجتماعي والمادي لما أحسسته من تعلقي بها ولأن أباها كان كما قالت لي رجلا طيبا وصالحا وشجعتني على التقدم للفتاة وسؤالها عن رأيها في الارتباط بى لكى تزورها معي.. وسألت فتاتى فوافقت

مرحبة، وتوجهت مع أمي لزيارتها ولم يبق أمامي إلا عودة أبي من الحج لكي تكتمل سعادتي.. وعاد أبي وفي اليوم التالي لعودته مباشرة لاحظت عليه أنه يعاملني بجفاء لم أعتده منه من قبل، كما لاحظت همسا كثيرة يدور بين أمي وأشقائي وينقطع بمجرد ظهورى، ثم صارحتني أمي بأن أبى قد هاج هياجا شديدا حين علم بالأمر ولامها واعتبر مجرد التفكير في زواجي من ابنة عامل سابق عنده عارا ينبغي محوه وطالبها بإعادتي إلى رشدي وإلا أنزل بي أشد العقاب! واسودت الدنيا في وجهي. وركبت سيارتي وانطلقت أهيم على وجهي بلا هدف، وبعد فترة وجدت نفسي واقفا تحت العمارة التي يقع بها مكتب زميلي الكبير أترقب نزول فتاتي لأراها عن بعد.. ونزلت ورأيتها وانصرفت وتكرر هذا المشهد الصامت بعد ذلك كل يوم لمدة شهرين وأنا أغالب نفسي حتى لا ألوم أبى أن حرمني مما أحل الله وشرعه، وذات يوم كنت في موقف الصامت هذا ففوجئت بها تودع زملاءها وتتجه إلى سيارتي وتخاطبني قائلة: أما زلت واقفا في مكانك منذ شهرين؟ فحاولت الاعتذار لها عن عدم الرجوع لزيارتها بعد عودة أبي من الحج بأنه عاد مريضا فوجدتها تقول لي ببساطة: لا داعى للاعتذار عن تصرف غيرك.. فلقد كنت واثقة من رفضهم لى فكن واقعيا.. ولا تحزن فازددت ارتباطا بها ونشأت بيننا قصة حب طاهر نظيف وعشنا أجمل أيامنا ونحن نأمل في الله أن لنا الظروف التي تجمع بيننا دون أن نغضب أبي. واستمر الحال على ذلك حتى قرر زميلي المهندس الكبير إغلاق مكتبه والسفر للخارج.. فرجوتها أن تأتي للعمل معي وألححت عليها حتى قبلت.. والتحقت بمكتبنا الصغير وانتظم العمل لوجودي الدائم بالمكتب بقرب فتاتى، ثم خرجت ذات مرة للمرور على موقع نقوم بعمل فيه فخطر لأمي أن تمر بمكتبى لزيارتى خلال مرورها في السوق فرأت فتاتي فيه وسألت عن سبب وجودها وعرفت أنها تعمل معي فطلبت منها أن تتحدث معها في غرفة مكتبي وانصرفت أمي. وعدت إلى المكتب فلم أجد فتاتي فيه وسألت عنها فقيل لي إنها جمعت أشياءها من المكتب وودعتهم وانصرفت..

واستفسرت من أمي عما حدث فلم تقل لي إلا أنه كان حديثا عاديا لكن الفتاة انفعلت وقالت إنها ستتركني ليستريح الجميع وذهبت إلى بيت فتاتى فرفضت مقابلتى بالرغم من إلحاحي وتأكدت من أن كل شيء قد انتهى فعدت إلى شرودى واكتئابي واستقر الامتعاض في وجهي وأهملت كل شيء حتى مظهرى. ومضى عام طويل حاولت خلاله نسيانها وخطبت ثلاث تنطبق عليهن المواصفات العائلية المطلوبة فلم تطل خطبتي لأي منهن عن شهر ثم فسختها ثم دخلت في أحد الأيام محلا تجارية واشتريت بعض الأشياء وتوجهت إلى «الكيس» لدفع ثمنها فوجدت نفسي فجأة أمام فتاتي القديمة تجلس وراء الحزينة..

وتسمرت أمامها ورفضت أن أتحرك من مكاني إلا وهي معي. ولم تجد هي بدا من الاستجابة وهي مترددة بين الإحساس بالحرج والفرح لإصرارى عليها. واستأذنت وخرجت معي إلى أحد المحلات العامة وعرفت منها أن أمي قد أكدت لها أن وجودها في حياتي سيثير على غضب أبي وأنه سيحرمني من كل ما أنا فيه من نعيم.. وأني لا أستطيع احتمال الحياة بغير هذه الإمكانات التي اعتدت عليها، فآثرت

أن تتركني حتى لا تجني على. وعلمت منها أيضا أنها قد خطبت خلال هذا العام لأحد أقاربها لكنها لم تستطع الاستمرار لأنها لم تنسنى. واتفقنا على ألا نفترق بعد ذلك أبدا وأعلنتها أني سأبذل كل ما أملك من جهد لإقناع أبي... فإن لم يوافق فسوف أتزوجها ولي العذر فيها أفعل بعدما عانيته خلال الفترة الماضية. وحذرتني من غضب أبي على فلم أغير رأيي.. فطالبتني إذا اضطررنا للزواج بغير موافقته بأن أعيد إليه كل ما أعطاه لى عند تخرجى لأبدأ من جديد حتى لا أكون قد خالفت إرادته واستعنت على ذلك بما منحنى من إمكانات... فرفضت هذه الفكرة وأنا أؤكد لها أني في النهاية ابنه ولن يسعده أن يعيدني إلى نقطة البداية من جديد، وتوجهت لأبي وحدثته مباشرة في موضوعي لأول مرة فسخر مني بقسوة واتهمني بالجنون وسألني ثائرا: أتريد أن تجلب لى العار وتثير طمع العاملين عندي في أن يتزوج شقيقاك من بناتهم؟ وطالبني بنزع هذه الفكرة نهائية من رأسي وإلا أدخلني مستشفى الأمراض العقلية!

وسلمت أمرى لله وبدأت أستعد للزواج من فتاتى رغم رفض أبى..

وحددنا موعد الزفاف وأخبرت أهلي به وأنا لا أنتظر حضور أحد منهم، واقترب يوم الزفاف ولم يتغير موقف أبي وخرجت من المكتب إلى أحد المواقع التي نعمل فيها أنتظر حضور أحد منهم إشفاقا من إغضاب أبي. واقترب يوم الزواج واشتريت بدلة الفرح ولم يغير أبي موقفه. ثم خرجت من مكتبى قبل يوم الزفاف بثلاثة أيام إلى موقع نعمل فيه وأنا بالقميص والبنطلون كعادتي في العمل وعدت منه إلى المكتب فما كدت أركن سيارتي حتى وجدت أحد العاملين مع أبي يقول لي: إن أبى سيسافر الآن إلى القاهرة لعمل هام وسيارته معطلة لهذا فهو يريد السيارة ليسافر بها فأعطيته مفاتيحها وصعدت للمكتب فرأيت على مدخله منظرا غريبا.. فقد وجدت بابه مغلقا وأمامه تتناثر أوراق ورسوم هندسية وأوراق ممزقة كثيرة أمسكت ببعضها فإذا بها أوراق مكتبي. فحاولت فتح الباب بمفتاحى فلم ينفتح ودفعت الباب أنادي على العاملين معي فجاءني صوت غريب من الداخل يطالبني بالانصراف لأن المكتب لم يعد ملكي وأنا ممنوع من دخوله. وكدت أسقط على الأرض وتحاملت على نفسي وركبت سيارة أجرة إلى شقتي التي سأتزوج بها بعد ثلاثة أيام فوجدت على بابها قفلا كبيرة ومفتاحي لا يفتح وحارسا مقيما داخلها يطالبني بالانصراف في هدوء. وهرولت منها إلى بيت فتاتى. وعرفت أن أبي وشقيقي وزوج شقيقتي قد ذهبوا إلى المكتب وطردوا العاملين به وألقوا أوراقه خارجه ومزقوا بعضها.. ثم خرجوا من المكتب إلى الشقة وغيروا قفل الباب وحرموني حتى من الحصول على ملابسي وبدلة الفرح... وأمضيت ليلتي في فندق صغير وبت ليلتي راقدا فوق السرير بالقميص والبنطلون لا يغمض لي جفن وأنا محموم من الألم والقهر وأهذي وأسأل نفسي إلى هذا الحد يا أبي.. وإلى هذا الحد يا شقيقي الحبيبين...

وتمزقون أوراق العمل وبها حقوق أناس ومصالحهم.. وأين الكلمة الطيبة يا شقيقي التي تخفف من غضب أبي بدلا من المشاركة بهذا الحماس والنشاط في خراب بيت

شقيقك الأكبر.. إلى هذا الحد لا حول ولا قوة إلا بالله.. ثم تسيل دموعي بلا توقف وحتى الصباح.

ونهضت من الفراش مريضا وتوجهت إلى البنك مباشرة وسحبت ما بقى لي فيه من نقود وسددت مرتبات العاملين معى وأعدت مقدماته الأجر التي حصلت عليها من بعض الزبائن لأعمال جديدة لن أستطيع الوفاء بها.. ولم يتبق معى سوى مائة جنيه فقط، دفعتها للمأذون الذي عقد قراني على زوجتي وأنا بنفس القميص والبنطلون اللذين لم يعد عندي غيرهما من الملابس. وأقمت مع زوجتي وشقيقتيها في بيتهن البسيط لكنه دافئ بالحب والتراحم بين ذوي القربى، وبدأت أفكر فيها أفعل لأكسب رزقي وأعول زوجتي التي رفضها أهلي لفقرها وبساطة أهلها فتزوجتني هي فقيرة وبلا أهل نهائيا وسبحان مغير الأحوال..

وخلال بحثي عن عمل جديد رأيت «تركتى» توزع على «ورثتى» أمام عيني. فرأيت شقتي التي كنت أستعد للزواج بها يفوز بها شقيقى الذى يليني في السن، ورأيت سيارتي يفوز بها شقيقي الأصغر، ورأيت مكتبى يستولى عليه زوج شقيقتي التاجر الكبير ويحوله إلى مكتب للاستيراد والتصدير ليوسع تجارته ونشاطه. ويضع عليه لافتة باسمه!

وقد قاطعني أبي وشقيقاى وزوج شقيقتي.. ونسوا تمام وجودي في الحياة فلم يعد لى أهل سوى بعض الأصدقاء وأسرة زوجتي البسيطة وراقبت كل ذلك في صبر وصمت وأنا ضيف في بيت زوجتى وشقيقتيها.

ومضى شهران على إقامتي معهن.. ثم وفقني الله للحصول على عمل بمرتب كبير في شركة للاستثمار والتعمير فأجرت شقة مفروشة وانتقلت إليها مع زوجتي، وبعد عام واحد كافأنا ربك والذي لا ينسى أحدا على صبرنا وتحملنا للأذى فجاءني عقد للعمل في إحدى الدول العربية وسافرنا إليها وعملت هناك خمس سنوات متصلة بلا أجازة واحدة وفتح الله لي أبواب الرزق فيها بسخاء فانهال على العمل الإضافي في التصاميم الهندسية دون سعى منى وبأجور لا تفسير لها عندى سوى أن الله أراد أن يعوضني بها عما خسرت.. وأنجبت طفلا فسميته باسم أبي رغم مقاطعته لي وأيدتني زوجتي في تسميته باسمه. ثم أنجبت طفلة فاخترنا لها مع اسم أمي، ثم وجدت بعد خمس سنوات من سفرى أن ما تحقق لي من مدخرات خلالها لا يتحقق لغيري في أقل من عشر سنوات فقررنا العودة لبلادنا.

وكنت خلال اغترابي قد عرفت أن أبي قد مرض منذ فترة مرضا شديدا أقعده عن الحركة.. وأن إخوتي يتخبطون في إدارة التجارة وحدهم... كما علمت أيضا أن زوج شقيقتي قد تورط في صفقة استيراد مشبوهة ودخل السجن لفترة فكنت أرسل إلى شقيقتى مصروفها وأولادها الأربعة كل شهر خلال هذه المحنة. لتعثر تجارة أبي على يدي ولديه..

وبعد عودتي قررت استئناف عملى وبحثت عن شقة.. فإذا بي أجد شقة في نفس العمارة التي كان بها مكتبي القديم فاشتريتها وأثثتها وأقمت فيها مع أسرتي الصغيرة. واستقر بنا الحال بفضل الله ونجح عملي وأتاني الرزق الوفير.. والحمد

لله ورضيت عن حياتى وعملى وأسرتي.. لكن شيئا واحدا ينغص على هدوئي الآن هو أن تجارة والدي قد أصبحت للأسف مهددة بالإفلاس بسبب نقص السيولة وكثرة الديون. وقد باع شقيقي الشقة التي «ورثها» عنى لتسديد بعض الديون لكن الباقي ما زال كثيرة. وأنا معي الآن من فضل الله ما أستطيع به تسديد الديون وإنقاذ التجارة من الإفلاس ومن عرض المنزل الكبير والمحل للبيع وأفكر جديا في القيام بذلك لكن الشيطان يا سيدى يدير رأسي أحيانا فأتساءل بيني وبين نفسي ولماذا لا أشتري المنزل الكبير الذي قضيت فيه أحلى أيام عمري ويعيش فيه أبي وأمي وشقيقاى وزوجتاهما. وأشترى المحل حين يعرض للبيع بدلا أن أسدد عنهم الدين ثم أطرد شقيقى الاثنين من البيت وأبقى على أبي وأمي حتى لا أرتكب معصية ترقى إلى الكفر والعياذ بالله، وأستغرق في هذا التفكير فترات طويلة وتستولي على الرغبة في الانتقام فلا يحد من هذه الأفكار السوداء عندي سوى زوجتي التي رفضوها منذ تسع سنوات وطردوني من أجلها شر طردة والتي تحثني الآن على أن أسامح وألا أقابل السيئة بالسيئة وعلى أن أقف بجانبهم لأنها أحبت انسانا طيبا متسامحة ولا تريد أن تعيش مع إنسان متسلط جبار إذا تحولت إليه، وهكذا حتى توترت علاقتي بها أول مرة. وأصبحت أمضى أكثر أوقاتى خارج البيت لأفكر بهدوء فيها أفعل.. أما زوج شقيقتي فقد تصور أني عفوت عما فعل بى بعدما جرى له، لكن هذا غير صحيح مع أنه يحاول الآن كسب رزقه بشرف، والحق أنه تراودني أيضا فكرة الانتقام منه وألا أتركه في حاله وأن أنغص عليه عيشه بما فعل بي.

وكلما هممت بشيء من ذلك رأيت وجه زوجتي الطيب يحذرني رغم خصامنا فأرجع عما أفكر فيه والنتيجة أني في عذاب مقيم. فلا أنا وقفت بجانب إخوتي في محنتهم ولا أنا قادر على الانتقام منهم أو من زوج شقيقتي.. ولا أنا أرحت نفسي وأرحت زوجتي ولا أنا زرت أبي وأمي لأطمئن عليها.. فاذا أفعل؟.. ولماذا لا يتصل بي إخوتي ويعتذرون لى عن فعلتهم السوداء في حقي... فيرق قلبي وأنسى ما فعلوا وأخرجهم من عثرتهم أو بماذا تنصحني يا سيدى؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هناك كلمة عربية قديمة تكاد تلخص في إيجاز معجز قصتك الغريبة هذه وينبغي أن تتذكرها دائما وأنت غارق في أفكارك وحيرتك الآن.. أما الحكمة فتقول: دخل بيت ما خرج منه!

وتفسيرها أن ما يخرج من بيت المرء من عمله وفعله وإرادته إنما يعود إليه من حيث لا يدري، فإن كان خيرا فلقد عاد إليه الخير، وإن كان شرا فلقد رجع من حيث خرج.

فماذا تريد لبيتك وأسرتك الصغيرة الآمنة هذه؟

أتريد لها أن يغزوها - لا قدر الله - شر لأنك استسلمت لشهوة الانتقام من بعض أهلك، والانتقام شهوة كباقي الشهوات قد تستولى على المرء وتخرجه عن طبيعته

وتنسيه ربه وخلقه ودينه؟

أم تريد لها أن تعيش آمنة مطمئنة سعيدة ترفرف ملائكة الخير في سمائها.. وتذب عنها عوادي الأيام؟

إن النفس المشغولة بالرغبة في الانتقام من الآخرين حتى ولو ظلموها نفس مهمومة قلقة أضافت إلى همومها العادية همها بالآخرين والنفس المتسامحة التي وكلت إلى خالقها أن يأخذ لها ثأرها من ظالميها نفس مطمئنة هادئة واثقة من عدالة ربها..

وأنت يا صديقي في وضع لا يسمح لك حتى بأن تسعد بثأرك من ظالميك، لأنهم بضعة منك فإن شمتّ فيهم فكأنما شمتّ في عقاب أصاب كبدك أو صدرك. ولست أطالبك بمكافأة ظالميك على ما فعلوا.. وإنما أطالبك فقط بأن تعتبر بما جرى لهم من جراء ظلمهم مهما كانت دوافعهم إليه وأن تنهض لأداء واجب عائلي يفرضه عليك دينك وخلقك هو حماية اسم أبيك الذي هو اسمك وإنقاذ تجارته من الإفلاس وبيع ممتلكاته في المزاد العلني مادمت قادرة عليه ذلك فأنت ومالك لأبيك. كما لا بد أن تعرف حتى ولو ظلمك وما دام في حاجة إلى نجدتك وأنت قادر على نجدته وديونه عليك ما زالت كبيرة ومستحقة السداد رغم استرداده لما أعطاك في نوبة غضب جنونى شاركه أو شجعه عليها شقيقاك وزوج شقيقتك.. فنال كل منهم جزاء ما فعل من محكمة الأيام. ويكفيك نصر ربك لك.. وفضله عليك الذي أعاد إليك أكثر مما فقدت حين عدت من جديد إلى نقطة البداية ولا أحد يطالبك في النهاية بأن تذرو في الهواء ما كسبت بالكفاح المضني والعمل الشاق في الغربة وفي بلادك. وإنها تطالبك الرحمة والبنوة والأخوة بأن تقيل شقيقيك من عثرتها بإقراضها ما يسدد الديون وبالضمانات التي تكفل لك استعادة مالك بعد أن تخرج التجارة من محنتها.. ويكفيك «عز» أن جاءت نجدتها على يديك أنت الذي لم يحفظا له حق الأخوة من قبل وفي الحديث الشريف أنه «ما ازداد أحد بعفو إلا عزا.. فاعفوا يعزكم الله».

وأي عز وأي شرف أكثر من أن تكون أنت الذي توهم البعض في حماة الغضب الأعمى أنك قد أصبحت عار الأسرة.. فإذا بك من ينقذ شرفها ويحفظ عليها كرامتها وعزها بعد حين!

وأي تكريم من الله سبحانه وتعالى لك تتردد في قبوله ونيل شرفه، وتفكر في إفساده عليك بالرغبة في الانتقام!.

يا صديقي إنه شرف لو تعلمون عظيم.. ورد لاعتبارك جاءك يسعى واستكمال لسعادتك وهنائك.. وقربي تتقرب بها من خالقك.. وتحتمي بها من غوائل الدنيا.. وتظل بها أسرتك الصغيرة من هجير الحياة وتقلبات الزمن، فلا تتردد فهذا هو ما تريده في أعماقك لكنك فقط تنتظر أن تأتيك المبادرة من شقيقيك.. وتنتظر أن يبدأك بالاعتذار.

فلماذا لا تتصور أنها لولا إدراكها لفداحة ما شاركا فيه لكانا المبادرين بالاعتذار إليك وطلب نجدتك.. وكيف لم تزر أبويك حتى الآن ورعايتك الإنسانية لهما واجبة حتى وإن لم يبرك أبوك في نوبة الغضب الأسود.

يا صديقي لقد جرى ما جرى.. وآن للقلب الجريح أن ينسى طعنات الآخرين الدامية له.. وإلا لاستحال عليه أن يهنأ بصفو حياته..

ولولا نعمة النسيان ما صافح أحد أحدا. فزر والديك رعاية لحقها عليك.. وسوف تكون زيارتك لها بداية لتشجع شقيقيك على الاعتذار إليك وعودة المياه لمجاريها بينكم إن شاء الله، واعرض بلا تردد ما تريد أن تفعل لإقالتها من عثرتها وسوف يتلقيان عرضك النبيل بدموع الندم. وتذكر دائما قول أبي الدرداء: «إنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه» فعسى أن تكون من الطائعين إن شاء الله فتطرح هذه الأفكار السوداء جانبا وتستجيب لرأي زوجتك الفاضلة وتكون مثلها متسامحا وعفوا فـ «المرء مع من أحب» خلقا وشمائل ورقة وعفة.. إذن كيف ترضي لنفسك ألا تكون معها في كل ذلك.. وأنت المحب الأمين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأشغال الشاقة

أنا فتاة في الثامنة عشرة من عمرى، لعلك تتساءل عن المشكلة التي يمكن أن تكتب إليك عنها فتاة في مثل عمرى ينبغي أن تكون سعيدة في ظل أبويها... فإذا كتبت فقد تكتب إليك عن عواطفها أو آمالها في الحياة.. لكني لن أكتب لك عن هذه ولا تلك. فقد انفصل أبي وأمي وأنا في الثامنة من عمري وتزوجت أمي من آخر وسافرت معه إلى إحدى الدول العربية وتزوج أبي بعد انفصاله عن أمى من سيدة أخرى وأنجب منها طفلتين وحين تزوج أبي للمرة الثانية كنت تلميذة سعيدة بمدرسة أجنبية معروفة فأخرجتني منها زوجة أبي وألحقتني بمدرسة حكومية وليتها أخرجتني من مدرستي وتركتني أعيش طفولتي كما يعيش كل الأطفال... لكنها راحت ومنذ طفولتي تتفنن في تكليفي بكل الأعمال المنزلية الشاقة رغم أن أبى ميسور ويستطيع لو أرادت أن تحضر من تقوم بها، وراحت منذ ذلك الحين ترهقني بكل الأعمال وتوقظني أحيانا في الثالثة صباحا في عز البرد وتضع أمامي كومة من الملابس لأغسلها بيدى رغم وجود الغسالة الكهربائية وبحجة أن أنتهى من غسيلها قبل موعد ذهابي للمدرسة، وتلقى على من أعمال البيت ما لا أستطيع احتماله فأقوم به بصبر وأفرغ منه بعد جهد وأجلس لكي أبدأ مذاكرتى فتجيء بجردل مياه وتلقيه في أرضية أي غرفة انتهيت من تنظيفها وتأمرني بإعادة مسحها كما ينبغي لأنها غير نظيفة! وكلما أرهقني العمل وأردت أن أختلس بعض لحظات الراحة دخلت الحمام لأحتمي به من مطالبها التي لا تنتهي.. فتجيء بعد دقائق وتدق على الباب حتى تكاد تكسره لكى أخرج وأواصل الأشغال الشاقة. ولقد كنت أستطيع أن أتحمل هذا العذاب لو كان أبي يخفف عني ما ألاقيه.. أو على الأقل يصبرني عليه، لكنه يا سيدى قد «تعلم» القسوة منها ويضربني من أجلها ويعلل عبء الأعمال المنزلية التي تلقيها على بأن كل فتاة يجب أن تؤديها وتعلمها.. مع أنهما يبالغان في تدليل الصغيرتين في نفس الوقت ولا يكلفانها بأي عمل ويغدقان عليهما بالمال والملابس الجديدة الغالية أما أنا فليس لى سوى الملابس القديمة التي تتخلص منها ابنة أختها وقد ألحقتها زوجة أبي بنفس المدرسة الأجنبية التي أخرجتني منها...، وكل ذلك وأهل أمي يحاولون ضمي إليهم لأعيش معهم وأبي يرفض وينهرهم ويطردهم من البيت إذا جاءوا ويرفض أن يسمح لى بمقابلتهم، أما أمى فقد عادت من الخارج عدة مرات وحاولت مقابلتى أو أخذي منه فطردها وهددها إذا حاولت أن تراني مرة أخرى وأصبحت زوجة أبي تصحبني للمدرسة في الصباح وتعيدني في الظهر حتى لا تحاول أمى مقابلتي في المدرسة.

وطوال عشر سنوات وأنا أتحمل هذا العذاب صابرة.. وأختلس الدقائق والله ولا أقول الساعات لأنظر في كتب المدرسية خطفة وأستيقظ من نومي أحيانا بعد أن ينام الجميع وأستذكر دروسى كأني أرتكب جريمة.. ويوفقني الله العليم بحالي في النجاح كل سنة، رغم كل هذه الظروف لكن المشكلة يا سيدى هي أنني الآن في الثانوية العامة... والمذاكرة تحتاج إلى تركيز وإلى فترات طويلة متواصلة وأعصاب هادئة لكي أستطيع النجاح بالمجموع الذي يؤهلني للالتحاق بالجامعة وكل ذلك لا يتوافر

لى مع الظروف التي أعاني منها.. وقد مضى الآن أكثر من نصف العام الدراسي ولم أستذكر كلمة واحدة من دروسى وأخشى أن تمضي المدة الباقية بنفس النتيجة وأتوسل إليك أن تجد لى حلا ولو حتى تواسيني بكلمة تشد من أزرى حتى لا أضعف وأتخلص من حياتي إذ لولا إيماني الشديد بالله لفعلت ذلك منذ زمن طويل فما هو الحل يا سيدى؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الحل هو أن تتنبه الضمائر الغافلة إلى ثقل مسئوليتها أمام الله سبحانه وتعالى وتتهيب عقابه. فكل راعٍ مسئول عن رعيته.. وأبوكِ مسئول عن رعايتكِ وكفالتك والعدل معكِ، وزوجة أبيك مسئولة مسئولية مماثلة لأنك أصبحت وديعة بين يديها منذ وضعتها الأقدار في موضع أمكِ، فإن لم تحرك هذه الأمانة التي تنوء من ثقلها الجبال ضمائر البشر فمن يحركها؟.. ومن يذكِّر زوجة أبيكِ بأن من ظَلم يُظلم ولو بعد حين! وأن من قهر من لا يستطيع رد ظلمه عليه لضعفة وقلة حيلته جرعته الحياة نفس القهر الذي جرعه لغيره وربما أشد منه. والحياة كما يقولون ديون قد يتأخر سدادها بعض الوقت لكنها دائما واجبة السداد في الدنيا وفي الآخرة، بل ومن ينبه زوجة أبيكِ إلى أنها بتمييزها لابنتيها عليك إنها تشركهما معها من حيث لا تريد في سداد فاتورة الحساب هذه على رغمهما لأن الطفل الذي يشعر بتمييز أبويه له عن أخيه، ويستطيبه ينشأ غالبا أنانيا مستهترا، مدللا غير قادر على الاعتماد على نفسه.. ينتظر من الحياة أن تخصه بجوائزها وحده ويتصور أحقيته في ذلك كما اعتاد أن يفعل في دائرة أسرته المحدودة فيصطدم باختبارات الحياة القاسية وينهار أمامها ضعفا أو سخطا فلماذا تريد زوجة أبيك لطفلتيها هذا المصير؟

إن الحل يا آنستي هو أن تحتمى زوجة أبيك من شدائد الحياة هي وطفلتاها بالعدل معك والرفق بكِ، وأن يكون أبوك أكثر عدلا بين رعاياه وأكثر «حضورا» في الإشراف على إدارة مملكته الصغيرة وأن يراقب معاملة زوجته لكِ بالعدل والحزم الواجبين وأن يسوى بينكِ وبين أختيكِ في الرعاية والتدليل والمال والملابس وكل شيء، وأن يستعين بالله على استخدام من يخفف عنك هذه الأعمال المنزلية، فإن لم يستطع فليقسمها بالعدل بين الجميع.. ولا شك أنك تستطيعين محادثته في ذلك بما ينبغي من ود وصراحة بين الابنة وأبيها كما تستطيعين أيضا أن تحاولى رغم كل شيء كسب ود زوجة أبيكِ ومخاطبة قلب الأم فيها لأنه حتى أقسى القساة لا تخلو قلوبهم في معظم الأحيان من بعض جوانب الرحمة التي تحتاج لإظهارها إلى العزف على أوتارها.

كما تستطيعين أيضا أن توسطي بينك وبين أبيك بعض أقاربه وخاصة من يستريح هو إليهم ولا يحس حرجا أمامهم إذا حادثوه في أمركِ فإن لم تثمر كل هذه المحاولات ثمرتها المرجوة.. فليستجب أبوكِ إذن لنداء الرحمة ويسمح بضمك لأمك أو لأهلها.. فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلا مفر من أن تتحملي أقدارك إلى أن تنهي دراستكِ وتبلغى سن الرشد وتستطيعي تحمل مسئولية قرارك..

فاصبرى يا فتاتى.. وواصلي «تحايلك» على استذكار دروسكِ التي تجند أسر أخرى لها كل إمكاناتها بل وتغير من نظام حياتها لكى توفر لأبنائها فرصة استذكارها.. وثقي أن الله سوف يعينكِ على أمركِ كما أعانك من قبل وسوف يحقق لكِ آمالكِ ويجزيكِ جزاء الصابرين إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

رسالة معطرة!

قرأت رسالة «الأشغال الشاقة» للفتاة ابنة الثامنة عشرة التي تشكو من سوء معاملة زوجة أبيها لها واضطهادها وتكليفها بكل الأعمال الشاقة في البيت؛ مما يؤثر على فرصتها في الدراسة ولست أريد أن أكرر مطالبتك لها بالصبر إلى أن تبدأ حياتها.. أو أن أعيد تذكير زوجة أبيها بعدالة السماء التي تعاقب كل آثم بها فعل.. وإنا أريد أن أروي لكاتبة الرسالة قصة حياتي وأعاهدك ألا أخفى منها ما قد يخجلني أو حتى ما يتعارض مع وضعي الذي ستعرفه من سياق الرسالة فيما بعد ثم أدعو الفتاة بعد ذلك أن تفهم ما أريد أن أقوله لها..

وأبدأ بأن أقول لك: إني ولدت بين أبوين مختلفي الطباع الأم ربة بيت لا حول لها ولا قوة والأب رجل أعمال مغامر وله سهراته ودنياه العريضة فتم الطلاق بعد سنة واحدة من مولدي.. وانشغل أبى بدنياه ونسينى تماما وتزوج.. وبعد قليل تزوجت أمي.. من موظف شاب لم يرحب بأن تنتقل إليه عروسه ومعها وليدها بالطبع.. فكان الحل الذي اتفقت عليه الأسرة هو أن تضمني خالتي مع أولادها كابن جديد لها مقابل مساعدة مالية بسيطة من خالي ومن خال أمي، وقبل زوج خالتي ذلك الوضع.. ونشأت بين أطفال أحسبهم إخوتي وأم أظنها أمي وأب أتصوره أبي.. وظل الوضع على هذا الحال إلى أن كبرت والتحقت بالمدرسة.. ثم تلقيت أول إشارة إلى أن من أعيش في كنفه ليس أبي حين لاحظ أحد المدرسين أن اسم الأب يختلف عن اسم ولي الأمر الذي يوقع على شهادات الدراسية وسألني عن ذلك فلم أحر جوابا.. ثم سألت إخوتي.. فعرفت الحقيقة.. وكانت هذه هي صدمتي الأولى في الحياة إذ بدأت أفهم وأنا في سن صغيرة سر قسوة خالتي وزوجها علىّ وحدي من بين باقي «إخوتي» مع أني متقدم في الدراسة منذ عامى الأول ويجيء ترتيبي الأول دائما في كل سنة، في حين يرسب بعض إخوتي أو ينجحون بصعوبة.. وعرفت أيضا لماذا يتم تكليفي وحدي بكل الأشغال الشاقة في البيت.. ولماذا يتحتم علىّ أن أصحو في الفجر في شتاء الإسكندرية القارس لأحضر الإفطار لزوج خالتي من محل بعيد، أمشي إليه على قدمي في شتاء الإسكندرية نصف ساعة في صقيع الصباح، لأن هذا المحل بالذات يجيد صنع الطعمية!

أما عن متاعب الحياة الأخرى فكثيرة ولا أريد أن أكررها.. لكني سأقول لك فقط إن عشائي لسنوات عديدة كان قرشا واحدة أتقاضاه كل ليلة بعد أن تصرخ أمعائي من الجوع فأشترى بنصفه رغيفا وبالنصف الأخر عسلا أسود وألتهمه في لحظات فلا يسد لى جوعا، أما الليالي التي بت فيها على الطوى لعقاب حرمني من قرش المساء أو لأي سبب آخر فلا عدد لها.. وأما ملابسي فما يشتريه لي خالي أو خال أمي كلما استطاعا ذلك. وأما مذاكرتى فمعظمها في الشارع تحت عمود النور كما ترى في الأفلام المصرية القديمة لأن زوج خالتي حدد لي موعدا لإطفاء لمبة الكهرباء الصغيرة ذات ال 20 وات في العاشرة مساء توفيرا للكهرباء وخيرني إذا أردت الاستذكار بعدها فلأذاكر لأولاده أولا وإلا فلا مذاكرة.. فكنت أحاول مساعدة أبناء خالتي بقدر جهدي ولا أضنّ عليهم بمساعدة... كنت أحاول أيضا ألا أهمل مذاكرتي

وأنا من يعرف أنه لا سند للإنسان في الحياة إلا تفوقه فكنت أستأذن أحيانا لدخول الحمام ثم أخرج الكتاب من جيبي وأخطف بضع دقائق للمذاكرة.. ولا أنسى يوم أن ضبطنى زوج خالتي سامحه الله مرة وأنا أختلس المذاكرة في الحمام فكان عقابى علقة قاسية تركت آثارها على جسمى شهورا.

ورغم ذلك فلقد كانت الحياة تمضي بين قسوة دائمة ولمسات عطف متقطعة وبين اضطهاد من خالتي وزوجها، ورحمة وعطف من أبنائها.. بل وعطف أيضا من أسرة من جيراننا كانت تقدر لي تفوقي وتحثني على الصبر والكفاح، وكانت أسرة مسيحية سيكون لها في حياتى شأن ستعرفه بعد قليل.

ووصلت إلى الثانوية العامة.. وفي هذه السنة نكبت بوفاة خالى وخال أمي اللذين كانا ينفقان على فأصبحت بلا نصير وأعلن زوج خالتي أنه لم يعد يستطيع أن يتحمل عبئي أكثر من ذلك لأنه أدى الواجب وما هو أكثر منه وأنه يجب أن يتحمل أبى مسئوليتى..

أبي.. وأين هو طوال هذه السنوات وكيف الوصول إليه، وهو لا يعرف حتى شكلي؟ فأعطاني زوج خالتي رقم تليفونه وطلب مني أن أتصل به وأن أبحث لنفسي عن مأوى جديد لأن أبناءه كبروا وضاق بهم المسكن.. ولم يكن باقيا على امتحان الثانوية العامة سوى 15 يوما. وكانت الشهور السابقة أقسى فترات حياتي من ناحية سوء المعاملة فلم أحصل دروسى خلالها جيدا، فأسرعت أتصل بالرقم وجاء صوت أبي الذي لا يعرفني ولم يرني وقد صرت الآن في التاسعة عشرة من عمري.. وأجابني بحذر وأنكر أنه صاحب الرقم وإنما هو شريك له في مكتبه التجاري ثم طلب أن أزوره ليبحث معي الأمر، فذهبت إليه وأنا متأكد أنه أبي ولا أعرف لماذا.. ودخلت شقة بمحطة الرمل على الكورنيش فرأيت لأول مرة رجلا في الخمسين من عمره يبدو خبيرا بالحياة فبدأني بأن «أبي» مسافر إلى ليبيا في عمل وأنه شريكه ثم راح يسألني عن حياتي. ولم تهتز شعرة في رأسه حين قلت له إني بلا مأوى وسأتقدم لامتحان الثانوية العامة بعد 15 يوما ثم أعطاني جنيها وطلب مني الاتصال بالرقم بعد أسابيع بعد عودة «أبي، إن شاء الله!

ووجدت نفسي وحيدا في شوارع الإسكندرية لا أعرف أين أذهب ولا أستطيع العودة لبيت خالتي وليس من بين أصدقائي من تسمح له ظروفه باستضافتي في تلك الفترة ولم أجد مكانا أذهب إليه سوى الشارع الذي تربيت فيه فعدت إليه ووقفت حزينا بين بعض أصدقائي وكانت قصتي معروفة بينهم.. فإذا بابن أسرة جيراني المسيحيين التي حدثتك عنها يستدعيني لمقابلة أبيه فصعدت معه.. ففوجئت به يعرض على أن يستضيفني في بيته فترة الاستعداد للامتحان وما بعده وجاء عرضه لى هدية من السماء فقبلته شاكرا.. وعشت معهم وواصلت الليل بالنهار في الاستذكار وتقدمت للامتحان ونجحت بمجموع ٧١٪ فقط.. وتقدمت بأوراقي لمكتب التنسيق فرشحت لهندسة أسيوط.. لكني قررت فجأة أن أتقدم لكلية الشرطة عسى أن تقبلني فأجد لنفسي مأوى داخل جدرانها وشجعني جيراني الطيبون على ذلك.. وفي كل مرة كنت أسافر فيها للقاهرة لإجراء الاختبارات كانوا يعطونني جنيها لأنفق منه على سفرى وعودتي وجئت مرة لأحد الاختبارات فوجدته قد تأجل لليوم التالي فلم

أجد وسيلة لقضاء الليلة في القاهرة سوى المبيت في عربة ترام العباسية بعد أن شرحت للسائق حكايتى فتركني أبيت فيها مقسمًا لى أنه لو كان في حجرته موضع لقدم لاستضافني فيها!

وفوجئت بتفوقي في كل الاختبارات وقبولي بالكلية.. وأصبحت المعجزة التي تنتظر حلا من السماء هي الحصول على مبلغ 97 جنيها لرسوم السنة الأولى و 20 جنيها لرسوم الملابس، وكان « أبي، الذي أنكر نفسه مني قد كف عن إنكاره لشخصيته واعترف لي بأنه أبي ووعدني بالمساعدة لكنه تخلى عني فجأة في اللحظة الحرجة ليس عجزا ولا بخلا وإنما لأنه كان إنسانا بوهيميا عبقريا في كسب المال وعبقريا أيضا في إنفاقه في سفه وحين جاء موعد سداد الرسوم لم يكن معه ما يدفعه لى فبدأ أصدقاء المدرسة يساهمون في جمع المبلغ فلم يستطيعوا إلا تدبير مبلغ 20 جنيها، وبقيت العقبة الكبرى وهي مبلغ 67 جنيها. وجاء يوم دخول الكلية وأنا لا أجده فأبرقت إلى الكلية معتذرة عن التأخير بدعوى أن أبي يجري عملية جراحية ورحت أنتظر أن يفي أبي بوعده لي ويعطيني المبلغ حتى مضى آخر موعد حدده لي بلا جدوى فيئست تماما وسلمت أمرى لله.. وبدأت أعيد مبلغ الـ 20 جنيها إلى أصدقائي فإذا بجيراني الذين احتضنوني خلال هذه الفترة العصيبة يقدمون لي مبلغ ال 97 جنيه كاملا لأدفعه للكلية..

وحين بكيت تأثرا مسح الأب الطيب على رأسي وقال لي: إنه ليس إعانة لكنه هدية وسوف تردها لي أو لأولادي حين تصبح رجلا عظيما...

وشغلتني الأم والإبنة والأبناء بالضحك والهزار حتى تخففت من آلامى، ودخلت الكلية وأمضيت فترة المستجدين وهي 45 يوما وأنا في غاية السعادة لأن لى مأوى وطعاما وخرجت في أول أجازة مزهوا بالبدلة الميرى وسافرت إلى الإسكندرية وذهبت إلى بيت خالتي لكي أخفف عن جيراني الطيبين الذين تحملوا إقامتي معهم كل تلك الفترة ففوجئت بعد الاستقبال الفاتر بزوج خالتي يقول لي في صرامة إنه لا مكان لي عنده فذهبت إلى بيت أبي. فقابلني مقابلة عادية ودعاني لتناول كوب من الشاي.. ثم طلب مني الانصراف لأن زوجته ليست مستعدة لاستضافتى فخرجت إلى الشارع حزينا.. وذهبت إلى لوكاندة متواضعة بقروش في الليلة ودخلت إلى غرفة عارية من الأثاث وفي غاية القذارة وخلعت بدلتى وجلست على السرير. وتجمعت في صدرى فجأة كل أحزاني وآلامى فانفجرت في بكاء متواصل لم أبك مثله طوال حياتي ورغم كل ما لقيت من عناء.. ورفعت رأسي إلى سقف الحجرة «وخاطبته» بصوت مسموع: زملائي عادوا بالفرحة لأهلهم وقوبلوا بالعناق والقبلات، وأهلي لم يقابلوني إلا بالإنكار فهل يرضيك هذا.. وأين أذهب ولمن ألجأ... فهل يرضيك هذا ودموعي تهطل ولا أقول تسقط حتى لم يعد في عيني دموع.. فإذا بسكينة من عند الله تهبط علىّ فجأة فأقوم فأتوضأ وأصلى ركعتين لله وأنهض من صلاتي وأستلقي على السرير وأروح في نوم هادىء كأني عائد من نزهة على شاطئ البحر، وفي اليوم التالي أقرضتنى ابنة خالتي بضعة جنيهات أخرى تضاف إلى ديوني القديمة التي سأردها عندما أعمل بإذن الله.. وذهبت إلى جيرانى الذين وقفوا معي في شدتي وجلست بينهم ساعات طويلة وعدت للكلية

ومضت شهور الدراسة وتفوقت كعادتى واقتربت أجازة الصيف وكلما اقترب موعدها فرح الطلبة وحزنت أنا.. ووجدت نفسي ذات مرة أمام كبير المعلمين بالكلية وكان رجلا فاضلا فتشجعت وطلبت منه طلبًا غريبة هو أن تسمح لى الكلية بالبقاء فيها خلال أجازة الصيف؟

فاتسعت عيناه من الدهشة وسألني عن السبب. فرويت له كل ظروفي ودمعت عيناه تأثرا وهو يستمع إلى ثم قال لي: دع هذا الأمر لي وثق في رحمة الله.

ثم جاءت الأجازة فأرسلني بخطاب منه إلى مدير أمن الإسكندرية الذي درس حالتى وتأكد من صدق كل بياناتي فأصدر قرارا لا أظن أنه له سابقة من قبل وهو أن أقيم وأنا طالب في استراحة ضباط الشرطة بالإسكندرية وأن تصرف لي وجبة غداء كل يوم في نادي ضباط الشرطة، وكتب تقريرا بحالتي للكلية.. وكانت هبة أخرى من هبات السماء لي، لكنها لم تستمر في العام التالي بكل أسف إذ نقل مدير الأمن وجاء آخر لا يعرف قصتي فحرمت من تلك الميزة وكنا قد بدأنا كطلبة نتدرب في أقسام الشرطة.. فطلبت أن يكون تدريبي في نوبة الليل لأمضي الليالي ساهرة فيها وأنام في النهار في كبائن بعض الضباط الذين يعرفون حالى على الشاطئ وهكذا. ورغم ذلك فقد كنت أنجح بدرجة جيد جدا كل سنة.. ولا أتوانى عن مساعدة زملائي بالكلية في دروسهم وعرف عدد منهم قصتي فكان كل منهم يدفع عشرة قروش كل يوم في جمعية يقبضها أحدهم كل أسبوع ويدسها في جيبى سرا لأنفق منها في شئوني.. وإن عشت الدهر كله فلن أنسى فضل هؤلاء الطلبة علىّ، كما لن أنسى أن بعضهم قال لي ثائرا إنه حين يتخرج سوف يعيث في الأرض فسادة انتقاما مما يفعله جيل الكبار بالأبناء الذين لا حول لهم ولا قوة وكيف رددته إلى صوابه وذكرته بأن في الناس خيرا كثيرة لكن سوء حظى هو الذي أنشأني في أسرة تمزقت خيوطها.. كما لن أنسى فضل الأسرة الطيبة التي احتضنتني وكنت أزورها كل أجازة وأمضى مع أبنائها وبناتها كل وقتى وكانت كبراهن أكثرهم حنان بى - فكان طبيعية أن أميل بقلبي لها وأكتم مشاعري عنها حتى صارحتني هي وصارحتها لكني أكدت لها إني رغم أني أتمناها لا أستطيع أبدا إيلام أبيها وأمها وإخوتها بمتاعب الزواج مع اختلاف الدين... فإن ضمنت لي رضا أبويك بغير أي آلام نفسية لهما فإني سأكون أسعد الناس بها فتفهمت الوضع بتعقل تام و بلا مرارة واتفقنا على التضحية بحبنا من أجل أسرتها ولم تلبث مشاعرها بعد شهور أن اتجهت إلى شاب آخر من دينها وارتبطا عاطفية وأعلنت خطبتها وغالبت الامى وسعدت لها بقلب يحمل لها كل الخير وحضرت أكليلها بين إخوتها وأبناء وبنات خالتي وكنا أسعد الناس بها وهي بالثوب الأبيض، ولم تمض شهور أخرى على الخطبة حتى كنت أؤدي امتحان السنة الثالثة بكلية الشرطة مع طلبة السنة الأولى بكلية الحقوق وكانت لي شعبية بين الطلبة لتفوقي ولأني لا أتوانى عن مساعدتهم وأوزع عليهم ملخصات مدروسة لمراجعتها قبل الامتحان وأثناء انهماكى في الإجابة تنبهت إلى طالبة من طالبات الحقوق تجلس بجوارى وتهمس لي بسؤال عن الامتحان لا تعرف إجابته.. فهمست لها بالإجابة، وبعد الامتحان جاءت إلى فراجعت معي الإجابة وطمأنتها على إجابتها وانصرفت لحال سبيلي ونسيت أمرها تماما ومر عام آخر وبدأت امتحان

السنة الرابعة فإذا بنفس الطالبة تجلس بجواري في نفس المكان وبعد قليل بدأت تهمس لي مستغيثة فلبيت النداء بقدر ما سمحت به ظروف عملية المراقبة وأنا خائف بالطبع والتقينا بعد الامتحان.. فكانت بداية لحب كبير في حياتي واتفقنا على الارتباط بعد تخرجى وتخرجت متفوقا كالعادة وعينت في مدينتي الإسكندرية وأقمت في استراحة الضباط.. وأصبحت أتقاضى مرتبا قدره 43’50 جنيه.. وبدأت أسدد ديوني القديمة كأقساط شهرية وأسافر للقاهرة كل شهر لزيارة خطيبتي - ثم بدأت سحب الظلام التي تكثفت فوق سماء حياتي منذ ميلادى تنقشع واحدة بعد الأخرى وربما لن تصدق ما سوف أرويه لك لكن ربى شهيد على أني لا أحكي لك إلا الصدق والحقيقة، فقد علمني كفاح الليالي ألا أهمل واجبا.. وألا أتوانى عن خدمة إنسان في حاجة إلى خدمتى بعد أن ذقت مرارة النكران وافتقاد النصير.. فإذا ما تسميه أنت في ردودك بجوائز السماء تنهال علىّ في كل خطوة من خطوات حياتي العملية.. كأني من المحظوظين مع أنه لا سند لي سوى عملي وكفاءتى واجتهادى... فلا أتقدم لامتحان ترقية إلا وفوجئت بأني الأول بين الناجحين ولا أقدم بحثا في دورة تدريبية إلا أفاجأ به فائزا بالمركز الأول حتى فوجئت بعد قليل باختيارى في أحد الأعوام الضابط المثالي.. والرياضي المثالي.. ونودي على اسمي في أحد احتفالات توزيع الجوائز أربع مرات لأصعد وأصافح الوزير وأتسلم جوائزى... فلفت نظره ذلك وسألني عن الجهة التي أحب أنتقل إليها مكافأة لى وتوقع بالطبع أن يسمع مني أني أريد الانتقال إلى القاهرة أو شرطة السياحة مثلا أو إلى المطار كما يفضل شباب الضباط ففوجئ بي أطلب منه نقل إلى قنا لأحصل على سكن إداري أقيم فيه وأتزوج وأجمع فيه شملي مع فتاتى ووافق الوزير على الفور وسافرت لقنا وحصلت على السكن واستدعيت أمي من الإسكندرية لتقيم معي لفترة تحت سقف واحد لأول مرة في حياتي واستدعيت زوجتي التي كنت قد تزوجتها ولم يكن لنا عش نجتمع فيه. ولم يستقر بنا الحال طويلا هكذا إذ تغير المحافظ الذي منحنى السكن وطلبوا مني إخلاء الاستراحة فأعدت أمي وزوجتي إلى مستقرها وانتقلت للإقامة في معسكر الأمن المركزي ووهبت نفسي لخدمة جنوده وحل مشاكلهم وهم من أبناء الشعب الغلابة مثلى فكان دعاؤهم لى أن يفتح أمامي كل الأبواب المسدودة فحصلت على ترقيتين استثنائيتين خلال ستة شهور ثم توالت على «الفتوح» التي لا أعرف سرها فأصبحت «فاكهة» تتخاطفها الإدارات، فانتدبني محافظ قنا الجديد مسئولا للعلاقات العامة بالمحافظة.. وعيني أحد الوزراء بعد قليل مشرفا على مصايف ضباط الشرطة بأحد الشواطئ، ثم انتدبتني إحدى هيئات الشرطة التي يقاتل أصحاب الصلات للعمل بها - فعملت بها وحققت في عملي نجاحا كبيرا وأخيرا حصلت على مسكن بالقاهرة واجتمع شمل أسرتي واعترف أبي بتقصيره في حقي وهو في مرضه الأخير، وبكى بالدموع وهو يطلب صفحى فسامحته بقلب صاف.. لم يلبث بعدها بقليل أن توفي فطلبت له الرحمة ورعيت زوجته وأصبحت تدعو لي كل يوم وتندم على عدم ترحيبها بي في سابق الأيام وكنت وريث أبي الوحيد مع زوجته، فدخلت في نزاع قانونى مع مالك العبارة التي يقع فيها مكتب أبي التجاري بمحطة الرمل.. وأنصفني القضاء وحكم لي بالمكتب فبعته وسلمت زوجة أبي نصيبها بشرع الله وحقوقه فوجدت بين يدى بضعة عشرات من ألوف الجنيهات

وأنا من كاد مستقبل حياته كلها يضيع بسبب 67 جنيها ومن كان يحلم بقرش زائد ليحس بالشبع بعد عشاء العسل الأسود الضئيل وماتت زوجة أبي وهي عني راضية فورثت شقة أبي السكنية بالإسكندرية وأصبحت أؤجرها في الصيف، وماتت أمي وهي راضية عنى فورثت ما لها في إحدى شركات توظيف الأموال وبفضل الله وحده كنت قد سحبتها قبل أن تنفجر كارثة الشركات بعام واحد لأشتري قطعة أرض مستصلحة ولولا ذلك لضاعت أو دخلت في متاهات طويلة.. واستثمرت الأرض فجاءت بخير وفير.. وحافظت رغم كل شيء على صلة الرحم مع خالتي وزوجها.. وظللت معترفا له ولزوجته بفضلها في كفالتي وأنا طفل مشرد ولأبناء خالتي بالود والجميل. ولأسرة جيراني بكل مشاعر الحب والوفاء وكنت أستقبل بالود والحب في بيت خالتي وبيت جيراني ولا أتوانى عن خدمتهم جميعا ثم خيرتني الوزارة ذات مرة بين السفر في رحلة لأمريكا وبين السفر في رحلة الحج مكافأة لى فاخترت الحج.. وطفت بالبيت المعمور وشكرت ربى على نعمته.. وعلى أن حماني من الضياع ولم يورثني أية مرارة مما عانيته وأن غرس في قلبي حب الناس وحب الحياة وحب العدل وعدت راضيا عن نفسي وعن حياتي..

وأنا الآن يا سيدى رجل في الأربعين أشغل منصب يعتبر من المناصب الممتازة في هيئة الشرطة ولم ترشحني له سوى كفاءتي وفضل الله على ولم أسع لهذا المنصب.. وإنما هو الذي سعى إلى أن الله قد أنعم على برضاء كل من تعاملت معهم من رؤسائي ولا أعرف أيضا سر ذلك كما أني وهو الأهم زوج سعيد تشاركني حياتي حبيبة القلب «الغشاشة» التي كنت أهمس لها بالإجابات في امتحان الحقوق.. وهي سيدة رائعة وطيبة وعطوفة وتحب الناس مثلي ومتدينة ووديعة وليس في حياتها نقطة سوداء سوى حكاية الغش في الامتحان هذه!

وقد حضرت معي الإكليل الكبير لابنة جيراني الطيبين ولم تحس بالغيرة لأنها تعرف أمانتى واستقامتى وحبى واخلاصي لها، وعندي من فضل الله ولدان وبنت اخترت أن اسميها اسما يذكرنى بنعمة ربي وبفضله على كل حين، وأعيش مستورة والحمد لله.. وقد أصبح لى مال موفور تحق عنه الزكاة فأخرجها.. وأنا أتعجب من فضل ربى وكرمه وقد ذابت المرارات منذ زمن طويل.. والتمست الأعذار للجميع وسامحت الجميع ولم يبق إلا أن أؤكد للفتاة ابنة الثامنة عشرة أن الله لا يتخلى عن عباده الصابرين.. فاصبري يا ابنتى كما صبرت.. وانتظرى آلاء ربك وعقابه للظالمين.. والحمد لله أولا وأخيرا.. والحمد لله في كل حين.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

هذه إحدى الرسائل القليلة التي يجد الإنسان نفسه بعد قراءتها في حال معنوية ونفسية أفضل مما كان عليه قبل قراءتها.. وهذه أهم سمات أدب الحياة الإنساني النبيل.. أن يجد الإنسان نفسه بعد الانتهاء من قراءته أكثر حبا للناس وأكثر إيمانا بخيرية الحياة رغم ما يبدو فوق سطحها من بثور الألم والإجحاف.. وأكثر استعدادا للصفح عن أخطاء الآخرين في حقه واستعدادا لالتماس الأعذار لهم.. وأكثر إيمانا

بأن الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر الصابرين الراضين بقضائه وقدره والمكافحين لنيل حقوقهم العادلة من الخير والسعادة، ولقد أحسست بكل ذلك بعد انتهائي من قراءة رسالتك المعطرة بعطر كل هذه المعاني الجميلة.. وشعرت كما لو كنت قد ارتويت بها ارتواءً نفسيا عميقا ولا أريد أن أفسد غذاءها الروحي على أو على الآخرين بأي تعقيب طويل.. فإن كانت جوائز السماء قد انهمرت عليك بعد طول قهر ومعاناة.. فلا عجب في ذلك فإنما هو وعد الله الحق للمستضعفين.. وإن كنت قد أصبحت ترفل الآن في الاء ربك بعد حرمان ومسغبة، فلا عجب فإن نعم آلائه على الصابرين كثيرة..

فبأي آلاء ربهم يكذب المتعجلون والقانطون.. وبأي حِمي يحتمى الظالمون حين يسألون عمن كانوا يقهرون ويجحدون..

ولا كلمة أخرى أكثر من ذلك وشكرا لك على ما أسعدتني به وإلى لقاء آخر إن شاء الله مع جوائز أخرى أكبر وأفضل سوف تبلغني بها في حينها بإذن الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الذي كان!

بعد قصة حب كبيرة صمدت خلالها مع فتاتي لأهوال ومعارضة ضارية من جانب أسرتها، تزوجنا منذ سبع سنوات وانتصر الحب على تقاليد وأعراف ومشاكل وعقبات تنوء بحملها الجبال وأقمنا عشنا السعيد في إحدى الدول العربية غير الخليجية كوسيلة للفرار من هذه الصعوبات، ونعمنا معا بالحب والسعادة وأنجبنا طفلا عمره الآن خمس سنوات وطفلة تخطت العامين من عمرها، وكان بيتنا الصغير في الغربة واحة جميلة للحب والحنان والتفاهم. وبعد ولادة طفلتي بأسابيع فوجئت بزوجتي تطالبني بغير أية مقدمات بالطلاق! فذهلت ولم يغب عني أنها تعرضت لأهوال عديدة من ضغوط الأهل والتقاليد الموروثة بعد أن قطع زواجها مني كل ما بينها وبين أسرتها وأهلها ودنياها السابقة وقدرت أنها قد ناءت بكل ذلك وقررت الاستسلام للواقع الجبار فلم أغضب منها رغم هلعي من الفكرة ورأيت أن أعطيها مهلة كافية لمراجعة نفسها لعلها تستطيع أن تجتاز هذه المحنة الجديدة كما اجتازت المحن السابقة، فاستجبت لرغبتها وتركت لها مسكن الزوجية وانتقلت إلى سكن عازب مشترك، وتدخل الأصدقاء لإثنائها عن هدم بيت صغير كان جنة للحب ففشلت كل محاولاتهم، وكان مطلبها الدائم هو الطلاق لأنها اقتنعت بأنها لا تستطيع أن تنسلخ نهائيا عن جذورها وأهلها الذين قاطعوها جميعا بعد الزواج وتكريما للحب الكبير الذي جمع بيننا، رأيت أن نظل أصدقاء وعلى اتصال وثيق رغم استجابتي لرغبتها في ترك المسكن لأن ذلك الانفصال لم يتم لسبب شخصي يتعلق بي وإنما لأقدار لا حيلة لها ولا لي فيها فاتفقنا على أن تسمح لى برؤية الطفلين ثلاث مرات في الأسبوع.. وعلى توزيع الأثاث بيننا بل وعلى كيفية إحضار غسيلي إليها، وكان كل شيء بسيطة وسهلا بيننا وكنت أريد أن أمنحها راحة البال وسكينة النفس التي تنشدها في الاختلاء بنفسها لأني أحبها. ومضى عام طويل ونحن منفصلان ونرعى طفلينا معا والأمل يراودني أن يتغلب الحب من جديد على العقبات ونعود لمواصلة حياتنا السعيدة لكنها أصرت على الطلاق فطلقتها وقلبي ينزف دما، وأملت أن تستمر العلاقة الإنسانية الطيبة بين اثنين جمع بينهما ذات الحب وفرقتها أقدار لم يستطيعا مواجهتها. ورعاية لحق الطفلين اللذين جئنا بهما إلى الدنيا ولا ذنب لها في اختلاف عالمي أبويها لكن زوجتي السابقة فاجأتني بعد الطلاق بأن طلبت مني ألا أرى الطفلين سوى مرة واحدة كل أسبوع بدلا من ثلاث مرات، وقبلت ذلك رغم ألمي، ثم لمرة واحدة فقط في الشهر وأذعنت صاغرة وكارها أن أنازع من أحببتها سنوات طويلة وتزوجتها رغم كل الأهوال التي لاقيناها ثم فجأة يا سيدى اختفت زوجتي السابقة نهائية من البلد الذي نعيش فيه واصطحبت الطفلين معها وعادت إلى مصر وتم ذلك بتدبير غادر وفي سرية تامة رغم كل ما أبديت نحوها من استعداد دائم للتفاهم وكراهية منازعتها في شيء وأحسست بلسعة الخنجر المسموم الذي تتحدث عنه رسائل بريد الجمعة وفقدت صوابى وأماني وأنا من لم يفق بعد من طعنة انهيار الحب الذي حول من قبل مجرى حياتي. وطفت بيوت الأصدقاء أسأل عمن يعرف عن مصير ابني وابنتي شيئا ومضت الشهور بغير بارقة أمل في العثور عليها وكان كل ما عرفته هو أنها

في مصر مع زوجتي السابقة.. ولكن لا أحد يعرف مستقرهما وفشلت محاولات الأهل والأصدقاء في الاهتداء إليها. إنني يا سيدى رجل في الخامسة والأربعين من عمري وجامعي وإنسان بسيط حاول طوال عمره أن يكون عادلا مع الآخرين ولم تغيرني المأساة بعد رغم نزيف قلبي من الغدر وحرمانى من طفلي الصغيرين، ولست أطلب سوى أن تعاملني زوجتي السابقة بروح العدل والإنصاف التي عاملتها وعاملت الجميع بها.. ولا أريد إلا أن أعرف مكان طفل. وأقسم لك بربي وشرفي أني لن أسلب أمها حقها الطبيعي فيها وإنما سأعطيها ما فوق حقها في ذلك لأني رغم الغدر الذي تعتصرني مرارته ما زلت أقدر لها كل التضحيات التي تحملتها من أجلى، وكل الأشياء الكبيرة والصغيرة التي صنعتها لي وكل لحظة سعادة عشتها معها.. وكانت هي صانعتها

فضلا عن أن الإيذاء والإيلام وحرمان الآخرين من حقوقهم ليس من طبعي حتى وإن أذاني والمني وحرمني الآخرون.

ورغم أني قد حرمت من رؤية ابني وابنتي منذ أبريل عام تسعين إلا أني وأقسم لك على ذلك ما زلت لا أحمل لها ضغينة وربما التمست لها بيني وبين نفسي الأعذار الوهمية فيها فعلت وأكذب الناس والحقائق والدلائل فيها وأتذكر لها أنها صمدت للغربة والبعد عن الوطن والأهل والأصدقاء ولأقسى الاختبارات وتحملت الصعوبات الاقتصادية والجغرافية واختلاف الناس والطباع وصعوبات البداية وبناء عش الأحلام وأقول لنفسي أحيانا إنها إن كانت قد اختارت الانفصال والعودة بالطفلين فلابد أن لها أسباب وجيهة لا أعرفها الآن فرأت فيما فعلت الحل الأفضل لها. ولربما غفرت لها ما فعلت بى ذات يوم.. لكني سواء غفرت أو استعصى على النسيان لفترات فإنى أبدا لا أكره.. ولا أستطيع أن أكره وكل ما أريده فقط أن أهتدي إلى ابني وابنتي وأن أراهما وأن أطمئن عليها.. وأن أطمئن زوجتي إلى أنها لم تكن في حاجة إلى هذا الهروب الغادر بالطفلين.. لأني لم أنازعها في شيء رغم كل ما حدث فهل يعيننى قراؤك على الاهتداء إلى طفلي اللذين حرمت منها طوال الفترة الماضية ولم يعد لي أمل في الحياة إلا الاهتداء إليها.. وهل تنشر اسميهما وهما «مهند.. ومنى» لعل ذلك يساهم في عودة طفلين إلى حضن أبيها الذي يحبها ويحبانه؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لا شك أني أقدر آلامك ومعاناتك وحرمانك من طفليك بعد أن شهدت هزيمة الحب الذي واجهتها الأهوال من قبل فداء له..

كما اني بكل تأكيد أقدر لك تعففك عن منازعة زوجتك السابقة رعاية لحق الأيام السعيدة الماضية وحق طفلين صغيرين لا ذنب لهما في اختيار أبويها اللذين نطحا الصخر بزواجهما في وجه عقبات كالجبال، لكن المأساة يا صديقي هي أن نتعفف عن منازعة من نهلنا معهم رحيق السعادة ذات يوم فلا يتورعون أحيانا عن مكافاتنا

على ذلك بالغدر والخديعة.. إذ لا شك أن زوجتك السابقة كانت تخطط للفرار بطفليها منذ فترة طويلة.. ولا تثق في أنك لن تحرمها من حقها المشروع فيها، مع أني أتصور أنك وقد كنت دائما مسالما بل ومستسلما إلى حد كبير معها، لم تكن لترضى بذلك ولا تسمح به في حدود الشرع والقانون.. فماذا أخافها إذن.. ولماذا لم تتفاهم معك على العودة ومستقبل الطفلين وأنت دائما على استعداد للتفاهم معها على كل شيء وعلى التنازل أيضا عن الكثير لها؟

وأيا كان السبب في تصرفها الغادر فلا شك أنك لم تكن لتستحق منها هذا الخنجر المسموم في كل الأحوال... كما لا يستحقه أيضا طفلاها لأن تعمدها حرمانك منهما لا يؤذيك وحدك وإنما يؤذي طفليها أيضا وقبل أي إنسان آخر ويسلبهما حقهما المشروع في أبيهما. والأمومة الحقة هي تلك التي تضحي معها الأم بأنانيتها ورغبتها في الانفراد وتملك أطفالها من أبيهم مهما اختلفت السبل بينهما، وهي حين تفعل ذلك إنما تستلبهم حقهم المشروع في رمز الأب الذي يعني الكثير للأطفال كما يعنى رمز الأم الكثير أيضا بالنسبة لهم..

ورغم تعاطفي معك. فيما زلت لا أعرف على وجه التحديد كيف يستطيع قراء بريد الجمعة أن يساعدوك في الاهتداء إلى طفليك.. كما أني لم أفهم تماما كيف يمكن أن تتبخر سيدة وطفلاها في الهواء فلا يعثر لهم أحد على أثر ولا على أي خيط يقود إليهم وزوجتك السابقة لها أهل وأقارب ومعارف وصديقات يمكن استقصاء مصيرها منهم حتى ولو لم يرحبوا بذلك.. لأنك تستطيع إن عجزت عن التفاهم أن تستعين بالجهات المختصة في الاهتداء لطفليك..

ولست أتصور أن يستطيع أحد أن ينوب عنك في هذه المهمة لأنك الأب الذي يستطيع وحده أن يطلب حقه القانوني في طفليه. لهذا فلابد أن تعود لبلدك في أجازة للبحث عن طفليك. وأن تبدأ بالاستعانة بعقلاء الأسرة وبالمنصفين فيها على نيل حقك، ثم بالقانون إن عجزت المساعي الحميدة عن تحقيق الهدف ولأني ممن يعولون كثيرة على الضمير الإنساني وأهميته كضابط أساسي من ضوابط الحياة ومنع تحولها إلى غابة للوحوش الكاسرة، فإني ما زلت أعول على ضمير بعض هؤلاء العقلاء.. بل وأعول أكثر على ضمير زوجتك السابقة نفسها رغم الخديعة والغدر إذا اقتنعت بأنك لن تحرمها من حقها في طفليها..

وآمل أن تسهم هذه الرسالة في طمأنتها إلى ذلك.. وأنتظر منها موقف أكثر عدلا.. وأكثر رعاية لحق الأيام الجميلة الماضية إن لم يكن لكل الدوافع الإنسانية المشروعة السابقة فعلى الأقل لكيلا تفقد تضحياتها السابقة كل معنى لها إذا هي أصرت على أن تحرم من قدمتها له طائعة من طفليه وهما ثمرة الحب الذي كان.. ومن العار أن يكون وجهه الآخر الوحيد هو التنازع كالغرباء أمام المحاكم واستلاب الحقوق.. والإيلام بلا عدل.. ولا رحمة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القرار!

.

أريد أن أروي لك قصتي رغم غرابة بعض فصولها لعلها تساهم في اطلاع قرائك على وجه آخر من وجوه خبرة الحياة الثمينة، فأنا الابنة الوسطى لأب مهندس يملك عمارة كبيرة في أحد أحياء القاهرة وأرض زراعية في محافظة قريبة منها. وكنا ثلاث شقيقات على قدر كبير من الجمال نشأنا في رعاية أب يعرف حدود ربه ويرعاها وأم طيبة، تكاتفا على تربيتنا حتى تخرجنا في كليات مرموقة فتخرجت أختي الكبرى مهندسة وتخرجت أنا طبيبة ودرست أختي الصغرى في كلية العلوم، ثم تزوجت أختي الكبرى وأقام لها أبي زفافها في أحد الفنادق الكبرى وسعدت بحياتها. فلم تمض بضعة شهور على زواجها حتى مرض أبي مرضا عارضا ورقد في فراشه بضعة أيام ثم تحسنت صحته بعد قليل فاستبشرنا خيرا. لكننا صحونا ذات صباح ففوجئنا به يلفظ أنفاسه الأخيرة بين أيدينا وليس في الشقة سواى وأمي وأختي فانطلقت صرخاتنا، وعويلنا يشق الجدران ولم ندر ماذا نفعل فإذا ببضعة رجال يطرقون باب الشقة بعنف وأفتح لهم بلا وعي فيندفعون للداخل وهم يتساءلون بانزعاج عما حدث، وأدركنا بصعوبة أنهم موظفون بشركة القطاع العام التي تحتل شقتين في عمارتنا بالدور الأسفل.. فواصلنا الصراخ والبكاء وأدركوا الموقف على الفور فدخل أحدهم إلى غرفة نوم أبي فستره بالغطاء وفتح مصحفا إلى جواره وراح يتلو من آيات الذكر الحكيم وقام آخر على الفور برفع قطع الأثاث للصالة استعدادا الوضع مقاعد للمعزين وطلب ثالث نوتة التليفونات الخاصة بنا وجلس بجوار التليفون يتصل بكل من فيها ويبلغه بالخبر المؤلم وخرج رابع إلى مكتب الصحة لاستخراج شهادة الوفاة وذهب خامس إلى المدافن لإعداد اللازم وغادر سادس الشقة للاتفاق مع متعهد الفراشة لإقامة السرادق وإحضار الكراسي للصالة ونحن في ذهول ولا ندرى ماذا كنا سنفعل لو لم ينقذنا هؤلاء الرجال.

وطوال هذه الساعات الكئيبة كان الموظف الذي دثر أبي بالغطاء يخرج من غرفة النوم من حين لآخر ليطمئن على الإجراءات ثم يعود ليواصل القراءة في المصحف.

ولازمنا هؤلاء الأشخاص الكرماء حتى انتهت كل المراسم الحزينة وعدنا من المدفن إلى البيت بعد الظهر وفي المساء أقيم السرادق وحضروا جميعا إليه وبعد انتهاء العزاء صعدوا إلينا ليطمئنوا على أحوالنا ثم نزلوا للشارع واشتروا لنا خبز وجبنة وزبادي لكى نتناول العشاء بعد أن أمضينا اليوم كله بغير طعام.. وتحايلوا علينا لنتناول بعض اللقيمات بدعوى أننا لا بد أن نأكل شيئا يسيرا من الطعام لكي نستطيع أن نستقبل المعزيات في الصباح..

وبعد يومين خف زحام المعزيات فصعد إلينا الموظف الذي غطى جثمان أبي ليعرض علينا كشف حساب نفقات المراسم والعزاء. وكنت في يوم الوفاة قد أخرجت من الدولاب مبلغا كبيرة لم أعده في ذهولى وأعطيته له ليتولى الإنفاق منه

فأحصاه أمامي وسجله على ورقة ثم عرض حسابه بالتفصيل فكان أقل كثيرة مما توقعنا.. وأعاد لنا باقي المبلغ وكان أكثر من نصفه.. فشكرته أمي كثيرة على ما فعل هو وزملاؤه فاحمر وجهه خجلا وانصرف.

ومضت الأيام والأسابيع والشهور وواجهنا الحياة بعد غياب أبي للأبد لأول مرة.. وبدأت أمي تتعامل مع مزارعي الأرض وسكان العمارة وفي كل يوم تحتاج إلى القيام بإجراء إداري أو استخراج أوراق إلخ.

وانفض السامر من حولنا بعد بضعة شهور فقلت زيارات الأقارب وأصبحنا ثلاث نساء في شقة بلا رجل يحمينا.. نمضي معظم لياليا وحيدات بعد عودتي من عملي وعودة شقيقتي الصغرى من كليتها وتخيم على أمسياتنا الكآبة وظلال زي الحداد الأسود الذي نرتديه وذات ليلة كنت جالسة مع أمى نتسامر فترحمت على أبي الذي كان يقوم عنها بكل هذه الأعباء إلى جانب عمله الأساسي ويحجب عنا كل المتاعب.. ثم تساءلت في مرارة ماذا نفعل في هذه الأعباء بعد غيابه؟

فوجدتني أجيبها بأن أفضل من يصلح لأداء هذه المهام عنه بأمانة هو فلان أي ذلك الموظف الذي وقف بجوارنا في أيام الوفاة وتولى الإنفاق على الإجراءات.

وأيدتني أمي في رأيي لكنها تساءلت عن كيفية ذلك نحن لا نملك تكليفه بها.. فوجدت نفسي أجيبها ولا أعرف كيف فعلت ذلك بهذا الجواب: أتزوجه.. فيقوم عنا بكل شيء ويكون رجلنا الذي يحمينا ويدافع عنا خلال انشغال زوج شقيقتي بأعماله التجارية وفوجئت أمي بالفكرة لكنها لم تنزعج لها.. بل راحت تفكر فيها بهدوء ثم بعد أيام تحرت عنه فعرفنا أنه يحمل مؤهلا متوسطة ومن أسرة متوسطة الحال.. وتخوفت أمي من ألا يناسبني بسبب ذلك لكني طمأنتها إلى أني قد ارتحت إليه وإلى رجولته من الأيام الأولى وأني لا أعير مسألة المؤهل اهتماما كبيرا.. ولم تضيع أمي وقتا طويلا بعد ذلك فقد طلبت مقابلة مدير الشركة التي يعمل بها وسألته عنه فزكاه لها وشهد له بالرجولة والأمانة وبأنه مثقف وواسع الأفق وبعد أيام استدعته أمي إلى شقتنا.. وبواقعية شديدة عرضت عليه أن يتزوجني! فأحمر وجه الرجل خجلا وتساءل مذهولا وأين أنا منها وهي طبيبة وأنا موظف بمؤهل متوسط ولست ثريا.. بل وأساعد أبي في تربية إخوتي ولن يتوفر لى ما أفكر في الزواج به من مال إلا بعد زواج شقيقاتى..

فلم أطق صبرا وكنت أتسمع حديثه فخرجت إليه وقلت له أمام أمي إنني لا أريد منك شيئا سوى دبلة الزواج لأني رأيت فيك رجلا أستطيع أن أعتمد عليه وأن يحميني ولا يهمني أي شيء آخر.. ففقد القدرة على النطق تماما وردد عينيه بيني وبين أمي غير مصدق وأمي تؤكد له ما قلته حتى تمالك نفسه ووافق.

وتحدد موعد لقراءة الفاتحة.. وأبلغت أمي أختي وزوجها وأقاربنا فوافقوا على مضض ولم يستطع أحدهم أن يفتح فمه بكلمة اعتراض واحدة بعد أن تركونا نواجه الحياة وحدنا طوال السنة الماضية.. وجاء خطيبى مع أسرته وأقاربه وقدم لى خاتم زواج جميلا وأعطته أمي خفية سوارا ليقدمه لى أمام الأسرتين ففعل محرجة، وبعد شهور أخرى تم توفير الشقة بمساعدة أمي وأصر على أن يشتري غرفة النوم

وقدمت أنا باقى الأثاث وتم عقد قراني في شقة أمي في ليلة جميلة وسعيدة وتزوجنا ووجدت فيه نفس الرجل الذي تخيلته حين فكرت في الارتباط به رجلا تنطلق ملامحه وتصرفاته مع الجميع بالرجولة والشهامة ومراعاة حدود الله.

ومضى العام الأول من زواجنا فحمل عن أمي كل أعباء حياتها وحياتنا معها وأنجبت طفلة جميلة، ثم طفلا آخر. وأثبتت الأيام أن معدنه أصيل لا يتغير وكسب احترام كل أهلي وثقتهم وأصبح مستشارهم الأول في المسائل المالية والإدارية ويتطوع لخدمتهم قبل أن يطالبوه بذلك. وتخرجت أختي الصغرى وعملت وتقدم لها شاب ففوضته أمي في كل شيء فنهض بالمهمة بالأمانة المعهودة فيه كأنما يزوج شقيقته.. وأدخله زوج شقيقتي في أعماله التجارية من الباطن لثقته فيه فقام بعمله معه بإخلاص.. وما زال يحثني على أداء الفرائض.. حتى انتظمت فيها وكنت من قبل أؤديها بغير انتظام.. ثم راح يلفت نظرى برقة إلى مظهري ويتمنى لو تحجبت مؤكدا على أنه إنها يفعل ذلك رعاية لصالحي قبل كل شيء حتى وجدتني ذات يوم أرتدي الحجاب عن اقتناع وأفاجئه به كما فاجأته ذات يوم بخروجى إليه لأحثه على أن يتزوجني بلا خجل!

وما زال بأمي يؤدي لها أعمالها بأمانة ويدفع إيرادها بالحق وبعدم التفريط في حقوقنا حتى ضاعفه خلال سنوات قليلة.. وما زال يطالبها بأن تؤدي فريضة الحج قبل أن يسرقها الزمن حتى اقتنعت فأجرى لها الإجراءات في سرعة البرق وضمن لها راحتها وأدت الفريضة وعادت منذ عامين ثم أقنع زوج شقيقتي الكبرى وأديا معا الفريضة في العام الماضي.

وقد مضى على زواجنا الآن سبع سنوات حصلت خلالها على الماجستير وترقى هو في عمله وقد بلغت الثالثة والثلاثين وبلغ الأربعين.. وأنا أزداد كل يوم اقتناع بأني قد اخترت الاختيار الصحيح وأحسنت إلى نفسي حين لم أخجل من أن أقترح على أمي أن تسعى لتزويجي من هذا الرجل حتى ولو كان ذلك خروجا على المألوف إذ ماذا يضيرني في أن أكون أنا الذي سعيت للزواج منه بغير أن أتعدى حدود الله أو أرتكب حراما؟

إنني أرى أن زوجي يستحق مني ألا أخفي هذه الحقيقة بل وأن أفخر بها.. فهل تتفق معي في ذلك.. ثم أقول لكل فتاة إن السعادة الزوجية لا تعني أن تخلو الحياة من المشاكل نهائية.. لأنه لا توجد حياة بلا مشاكل.. لكن السعادة هي أن يكون علاجنا لهذه المشاكل في إطار الحب واحترام كل طرف لمشاعر الطرف الآخر ودليل على ذلك هو أن حياتنا أيضا واجهت بعض المشاكل كنظرة الأهل لزوجي في البداية وقد فرضت عليهم جميعا احترامه.. وتكفلت شخصيته هو بعد ذلك وتدينه بدون تزمت في اكتساب هذا الاحترام.. كما أن لدينا مشكلة أخرى لم تحل بعد هي أنه مصر على ألا يستقيل من وظيفته الصغيرة ليتفرغ للعمل التجاري مع زوج شقيقتي مع أنه يحقق منه دخلا أكبر من مرتبه ولو تفرغ لحقق أضعافه لكني أقول رأيي وأترك له القرار في النهاية. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كل ما يحقق سعادة الإنسان العادلة المشروعة ولا يتعارض مع القيم الدينية والأخلاقية لا غبار عليه إذا توسل به الإنسان للوصول إليها بل إنه في بعض الأحيان يكون النكوص عن التماس هذه الوسائل المشروعة تقصيرا في حق النفس قد يلام عليه المرء.. وقد يفقده جدارته بالسعادة وفرصته العادلة لنيلها والحق أني دهشت قليلا لجرأتك في طريقتك «الواقعية» لاختيار شريك الحياة.. ولطريقتك الأكثر جرأة في مساعدتك لهذا الشريك على التغلب على تردده حين برزت إليه من وراء ستار لتضعي أمامه النقط فوق الحروف بلا مواربة، لكني رغم ذلك لا أنكر عليك حقك فيما فعلت بل لعلك لو لم تفعلي لما تغلب على هواجسه بشأن وضعك ووضعه. ولما استشعر جدارته بأن يكون شريكا أمينا لحياتك، ولا شك أنه جدير بهذا الاختيار ولقد أثبتت تجربة السنين جدارته وأكدتها.. وأثبتت لك صدق رؤيتك الثاقبة لمعادن الرجال لأننا لا نتعاشر بالشهادات والألقاب ولا نسعد بها.. وإنا نسعد بمن يأوي إليه القلب ويجد لديه ما يتمناه من مشاعر دافئة وفهم وتعاطف وحسن معاشرة ومساندة معنوية تعينه على مواجهة أنواء الحياة. لقد كسبت الاختيار لأنك أدركت جوهر القضية وهي أن السعادة إنها يصنعها البشر القادرون على خلقها وعلى استشعارها ونجح زوجك في الاختيار وكسب احترام أهلك لأن قيمة الدينية والخلقية ورجولته وشهامته وأمانته قد رشحته لنيل الاحترام والقبول..

ولعل ما ساعده على ذلك رغم التفاوت في المؤهل والمستوى المادى هو سعة أفقه وثقافته وطيب معشره وطيب منبته العائلى رغم التفاوت المادي، أما تمسكه بوظيفته الصغيرة فإنه يكشف عن رغبته في ألا يكون اعتماده النهائي في حياته على أسرتك، ولعله مع الأيام يزداد ثقة في جدارته بكل خير.. ويختار الوقت المناسب الذي يستغني فيه عن هذا العمل حين يرى ذلك مناسبا فلا تتعجليه في ذلك ولا تعارضيه إذا تمسك به للنهاية..

أما وسيلتك في الاختيار فلا شك أنها أفضل كثيرا من السلوكيات الملتوية التي تجري في الخفاء ولا تتم تحت أنظار الأهل ويكفيك شرفا أنها كانت نفس الوسيلة الشريفة التي اختارت بها السيدة خديجة شريكها الصادق الأمين فأرسلت إليه من يذكرها عنده.. أما التقييم النهائي للتجربة بعد ذلك فهو أن قوانين الحياة أولى بالاتباع في الأحوال العادية فإن فرضت الضرورة حالات لا تخضع لهذه القوانين وحققت النجاح والاستمرار فإننا لا نملك إزاءها إلا أن نطبق عليها المبدأ الفقهي المعروف الذي يقول: يبقى الشاذ من الفتيا كما هو ولا يقاس عليه!

وشكرا لك على رسالتك الجميلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قبل الوصول!

لست أدري كيف أبدأ رسالتي إليك. فالحق أني لم أتصور أبدا أن يأتي يوم أحتاج فيه إلى الكتابة لأحد عن نفسي. فلقد نشأت نشأة طبيعية وسعيدة وكنت طالبة متفوقة في كل مراحل دراستي، وبعد حصولي على الشهادة الجامعية عينت في وظيفة مرموقة يتمناها أي خريج بإحدى الهيئات الهامة، وتزوجت من زوجة فاضلة جميلة، وعشنا معا حياة طبيعية سعيدة، وأنجبت بنتين جميلتين وناجحتين في دراستها ومضت بنا الحياة من توفيق إلى توفيق أكبر فتقدمت في عملي وتقدمت الفتاتان في الدراسة حتى تخرجتا الواحدة بعد الأخرى وعملتا وتمت خطبة إحداهما. وقد بلغت سن الخمسين وأنا بصحة جيدة ولم أذهب لطبيب في حياتي كلها مرة واحدة وزوجتي سعيدة وقد أنعم الله علينا بالرزق الوفير وبالحج والعمرة أكثر من مرة معًا. وأصبحت مرشحًا لمنصب كبير بنفس الهيئة والدنيا من حولنا سعيدة وجميلة وواعدة بأجمل الآمال فإذا بكل هذا السلام ينهار فجأة. وأعود ذات يوم إلى بيتي فأجد زوجتى الفاضلة الجميلة تطلب مني الطلاق بعد عشرة خمسة وعشرين عاما.. وتصرّ عليه بلا أي مبرر إلا ما يكون بين الأزواج العاديين أحيانا من ملاحاة. فصعقت وسألتها عن السبب فلم أعرف شيئا.. واهتزت ثقتي في نفسي وتعرضت لمحنة نفسية شديدة، وساءلت ابنتي وهما شابتان عن الحقيقة فلم أجد جوابا لديهما، وتدخل بعض أقارب زوجتي بيني وبينها فلم يجدوا منها سوى الإصرار على طلب الطلاق!..

الطلاق الآن يا سيدى بعد خمس وعشرين سنة من العشرة الهادئة بلا أية مشاكل جوهرية وبعد أن بلغت ابنتي الكبرى الثالثة والعشرين ومخطوبة وبلغت الأخرى سن الحادية والعشرين ويتقدم لها الخطاب من حين لآخر؟

إن هذا ما حدث وأشارت شقيقتها على بأن أغادر البيت لفترة عسى أن تهدأ أعصابها وتتخلى عن طلب الطلاق.. فقمت خلال يومين بشراء شقة تمليك وأثثتها وانتقلت إليها وغادرت مسكن الزوجية الذي عشت فيه خمسة وعشرين عاما، واختارت ابنتاي أن تخرجا للإقامة معي. وبدأت حياتي كزوج منفصل عن زوجته ويتكتم الخبر خجلا من زملائه ومعارفه ومرؤوسيه وينتظر عودة الرشد إلى شريكة حياته..

ومضت الأيام ثقيلة والفتاتان تنتقلان بيني وبينها.. وفي كل يوم أنتظر أن تعيد زوجتي التفكير في موقفها وتضع سعادة الفتاتين وسمعتهما في اعتبارها فينتهى اليوم بلا أي بادرة أمل.. وبينا أنا أنتظر هذا الأمل فوجئت بدعوى طلاق في المحكمة من زوجتي الفاضلة ضدى! وذهلت واتصلت بها وسألتها عما إذا كانت تتصور أني سأقف ذات يوم في ساحة المحكمة ضدها. فأجابتني رفيقة الدرب لمدة ربع قرن من الزمان بصراحة جارحة بأنها لا تريدني! فسألتها ألم تفكري فيما سيصيب ابنتيكِ من جراء هذا الطلاق؟ فأجابتني إجابة أشد قسوة وهي أنها غير معنية الآن سوى بنفسها! ووجدت نفسي في خيار صعب بين أن أقف مع زوجتي أمام المحكمة وبين أن أطلقها.. واستشرت الفتاتين فكان من رأيها أنه ما دامت

الأمور قد تدنت إلى هذا المستوى فالأكرم هو الطلاق لعله يريحها نفسيًا ويفتح باب الأمل في الإصلاح بعد حين.

واقتنعت برأي الفتاتين خاصة أن زوجتي قد أكدت على أن الطلاق سيريح أعصابها.. واصطحبت المأذون إلى عش الزوجية الذي شهد مجيء البنات وتدرجنا في الوظائف وفي مراحل العمر من سن الشباب إلى سن النضج والاكتمال. ونظر المأذون إليّ وإلى زوجتي والحاضرين ثم أقسم ألا يوقع الطلاق لأنه إثم كبير حين يكون بلا سبب، فرجوته أن يؤدى مهمته لأنه لا معنى لرفضه سوى أن نحضر مأذونًا آخر.. فأصرّ على أن يعطينا فرصة أخرى لإصلاح الحال، ولم يتغير شيء بالطبع فعدت بالمأذون مرة أخرى ونطقت بكلمة الطلاق التي لم ترد على لسانى مرة واحدة من قبل وذرفت دموعي لأول مرة في حياتي. وعدت إلى مسكنى ومعي ابنتاى وفي مسكنى، وسألتهما صادقا هل تريان فيّ شيئا غير طبيعى في أخلاقي أو معاملتي للأخرين؟ فاجابتانى بالنفي - فسألتهما: هل أنا مُنفِّر لا تطيق امرأة النظر إليه؟.. فأجابتاني أيضا بالنفي. فانطويت على آلامي وأصبح كل همي هو ألا يعرف أحد في العمل أو محيط الزملاء بالطعنة التي تلقيتها وأنا في سن الثالثة والخمسين. ورغم جرحي النازف فإني لم أمنع البنتين عن زيارتها بل شجعتها أن تتناوبا الإقامة معها وجاء الصيف وأردت أن أخفف عن البنتين أحزانها فدعوتهما لقضاء فترة في أحد المصايف.. وهناك اتصلت الفتاتان بها وسألتانى: هل ندعوها للحضور لفترة؟ فأجبتها بالإيجاب مؤكد أني سأمضي الليالي التي تقيمها معها في أحد الفنادق، وجاءت واستقبلتها بترحيب وسألتني الفتاتان عن إمكانية الصلح فأجبتها بصراحة بأني راغب فيه رغم كل شيء من أجلها ومن أجل أشياء أخرى كثيرة وطلبت منهما أن يتحدثا إليها فأجابتهما بأنها تريد أن تهتم بنفسها، ورغم ذلك فقد كانت ودودة معي ومع الجميع. وعادت من حيث جاءت واستبشرت الفتاتان خيرا بزيارتها لها في المصيف وبروح الود التي كانت تعاملني بها خلال وجودها في المصيف، وأملنا أن تعرب عن رغبتها في العودة قريبة. لكن لم تجيء من ناحيتها أية إشارة.. وانتهت العدة وفي اليوم الأول بعد انقضائها ذهبت الفتاتان لزيارة أمها بتشجيع منى.. فهل تعرف يا سيدى ماذا وجدتا في انتظارهما هناك؟

لقد وجدتا مأذونًا يعقد زواج أمها وهي في سن السابعة والأربعين على رجل آخر لا يتناسب مع أبيها مركزا ولا أي شيء وأمهما سعيدة بالزواج الجديد في اليوم الأول لإنقضاء عدة طلاقها من الزوج الذي عاشرته ربع قرن. وعادت الفتاتان من هناك في أشد حالات الذهول ومنهارتين نفسية وجسدية.. وهما تسألانني: هل يمكن أن تفقد الأم أمومتها إلى هذا الحد؟

لقد مضى على الزواج السعيد الآن شهر لم تحاول خلاله الأم العروس أن تسأل فيه عن ابنتيها مرة واحدة في حين عرفت أنا لأول مرة الطريق إلى عيادات الأطباء. وأصبحت من روادها الدائمين. وما زلت مذهولا مما حدث.. أتساءل كيف ينقلب الإنسان من النقيض إلى النقيض بلا مقدمات هكذا؟ وماذا فعلت لكي تتعرض حياتى لهذه العاصفة في سن الهدوء والراحة وجني ثمار الكفاح الطويل؟ وأحيانا تهاجمني الأفكار السوداء فأفكر في الانتقام منها بشكل أو بآخر ثم أعود لنفسى - وأنا الرجل

الذي يعرف ربه - وأفيق من هذه الأفكار السوداء على صوت إحدى البنتين وهي تمسح بيدها على رأسي وتؤكد على أن الله سوف ينتقم لى ممن ظلمني. والأخرى تقول لي إنها إذا تزوجت فلن تدعوها لزفافها لأنها لم ترع موقفهما ولم تسأل عنها ولم ترع أمومتها لهما، فماذا أفعل يا سيدى؟.. وهل تنصحني بالزواج مرة أخرى؟ وما رأيك فيها فعلت زوجتي السابقة؟ وألست معي في أنها مأساة فاجأتني على غير انتظار وأنا في خريف العمر وبعد أن كنت أظن اني قد بلغت كل ما أصبو إليه من آمال ولم يبق سوى الوصول إلى الوظيفة الخطيرة المنتظرة لأقول إني قد نلت من الحياة كل ما أرتجي؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

جراح الحياة يا صديقي قد تفاجئ الإنسان في أي مرحلة من مراحل العمر.. وهي حين تجيء لا تفرق بين مغمور ومشهور ولا بين شخص بسيط وآخر خطير الشأن.. فالجميع أمام همومهم سواء. بل وصغار أيضا أمام الألم والأحزان. فهون عليك ما تحسه من «عار» شخصى ينبغي أن تتستر عليه وتخفيه عن الآخرين كأنما هو أمر يضع من قدرك عند الآخرين. وهو بكل تأكيد ليس كذلك. فالفشل في الزواج قدر مقدور قد يصيب أي إنسان وفي أي مرحلة من العمر. وقد أصاب من قبلك ملوكا وعظماء. بل وعرفه اثنان من الأنبياء هما نوح ولوط اللذان خانتها زوجتاهما في العقيدة وشقيا بهما لقد اختارت لك الأقدار أن تنزل بك هذه المحنة وأنت في سن النضج والحكمة ففكر في الأمر بروية وحاول أن تتفهم أبعاده.. وسوف تعرف أن ما جرى كان «الأكرم» لك رغم إيلامه وقسوته. فلقد كانت هناك قصة ما تجرى تحت السطح وتمكنت من الطرفين فقررا أن يواجها الدنيا بها وبغير اعتبار لأي شيء سوى سعادتهما الشخصية.. إذن فالعيب ليس في شخصيتك أنت يا سيدى وإنما فيمن لم تغالب أهواءها كما ينبغي للأم أن تفعل حرصا على صالح أبنائها واستسلمت لهذه الأهواء ولم تر بأسًا في أن تهدم المعبد فوق رؤوس الجميع غير مبالية بما يصيبهم جميعا من شظايا نفسية وأدبية لكي تتوج «قصتها» بالزواج في انقضاء عدتها. وهذا هو شأن الرجل أو المرأة إذا استسلم كل منهما لأهوائه ورجح سعادته الخاصة على باقي الاعتبارات.. ورغم أننا ندين هذا التصرف فإننا قد لا ننزعج له كثيرا لاعتياده من بعض الرجال، أما حين يجيء من جانب الأم فإن انزعاجنا له يكون أشد لأن طلب السعادة الخاصة على حساب تعاسة الأبناء أمر يتنافر تنافرًا شديدًا مع طبيعة الأمومة ومع عطائها المستمر للأبناء. لكن ما جرى قد جرى ولم يعد يجدى التعجب من حدوثه. ويبقى الأهم الآن وهو أن تنجو من آثار هذه المحنة وان تستعيد توازنك، وألا تضاعف من خسارتك الشخصية بالاستسلام للحزن والأفكار السوداء فتضاعف من بلائك ويصعب عليك احتماله ويكفيك تعاطف ابنتيك معك وإحساسها بمدى الظلم الذي تعرضت له، وحاول أن تلتمس العزاء والسلوى في الجوانب العديدة الأخرى من حياتك التي وفقك الله في معظم مجالاتها وأهمها حب ابنتيك الصادق لك، ولا بأس في أن تفكر - بعد فترة نقاهة كافية - في الزواج مرة أخرى من سيدة ملائمة لك في السن والوضع الاجتماعي وباقتناع ابنتيك وبمشورتهما،

وتأكد أنها سوف تسعدان بذلك في الوقت الملائم إذا رأتا فيه ما يخرجك من أحزانك ولمستا حاجتك إليه، وسوف تكونان سفيرتيك لاختيار من تليق بك.. ومن تخفف عنك آلامك. أما الانتقام فلا مبرر له.. ولا معنى ولا هو من حقك أصلا، ثم هل تريد انتقاما أبلغ من الانتقام الإلهي الذي جاء على لسان ابنتها الرشيدة من أنها لن تدعوها إلى زفافها حين تتزوج؟

∞∞∞∞∞∞

الأيام الخالية

انا سيدة شابة وزوجة وأم لثلاثة أطفال، ومن قارئات بابكم الممتع رغم ما فيه من آلام وأحزان لفئات كثيرة من البشر، لكن ردودكم الحكيمة تخفف كثيرا من وطأة هذه المشاكل على أصحابها، ثم شاءت إرادة الله أن أنقطع عن متابعة بابكم لمدة عام وثمانية شهور لأسباب سأحدثك عنها بعد قليل، وعدت لقراءته لأجد فيه العزاء والسلوى، فكان أول ما قرأته هو رسالة « العيون الحمراء » لهذا الشاب الذي فقد والده ثم خاله وبكاءهما بكاء حارا حتى أصيبت عيناه بحساسية تلازمه وتذكره بهذه الذكريات الأليمة، فوجدت في نفسي الرغبة لأن أكتب قصتي لك، ولأفسر لك لماذا انقطعت عن بابكم هذه الفترة..

وقبل أن أروي لك القصة أقول إنني كنت الابنة الخامسة لأب متدين طيب تاجر ميسور الحال له ثلاثة أبناء من الذكور وخمس إناث ولأم ربة بيت فاضلة تقية حجت إلى بيت الله مع أبي، ونشأنا جميعا في هذا المناخ الدافئ المتدين، وسارت بنا الحياة هانئة سعيدة، ومنذ عشر سنوات وصلت إلى السنة النهائية في كليتي وتقدم لخطبتي شاب وعقد أبى قرانى عليه وإتمام الزواج بعد الحصول على الشقة، لكن الأيام لم تمهله ليسعد بى كما سعد بشقيقاتي اللاتي سبقنني إلى الزواج، ففاجأته أزمة قلبية وهو جالس بيننا يحدثنا، توفي - رحمه الله - على إثرها، وكانت صدمتى الأولى في الحياة ولوعة الفراق لأبي العطوف طيب القلب الذي فقدنا معه «السند والعكاز » كما يقول الشاب كاتب الرسالة في رسالته عن أبيه، وأخلصت أمي لذكراه إخلاصا نادرا وبعد رحيله بعام ونصف عام تم زفافي، وبعد زواجي بعام تزوجت أختي التي تصغرني، ولم يبق في بيت الأسرة سوى أمي وشقيقين أحدهما أصغرنا سنة يبلغ من العمر 14 سنة، وعوض الله أمي عن فقدها لأبي بحنان شقيقنا الأكبر الذي يعيش في مدينة أخرى ويعمل بالتجارة وقد جعل الله - سبحانه وتعالى – منه الحنان والعطف، فسخا على أمي بحبه وحنانه وعطائه وعطفه وحجت إلى بيت الله الحرام ثلاث مرات بعد وفاة أبي، وكان يأتي لزيارتها من مدينته البعيدة كل خميس في أحيان كثيرة ويتصل بها تليفونيا كل يوم، ومضت الأيام، ومنذ عام وثمانية شهور بدأ شقيقي الأصغر- الذي كان قد بلغ الرابعة والعشرين من عمره - يفكر في الزواج، واختار قلبه فتاة وتحدث مع أمه بشأنها فرحبت بخطبتها وباركنا جميعا مشروعه واتفق أخي الأكبر مع أهل العروس على موعد لشراء الشبكة، وعز عليه أن يترك شقيقه وحده في هذه المناسبة فطلب انتظاره إلى أن يحضر من مدينته البعيدة ليقف إلى جواره في هذا اليوم بدلا من أبيه، وجاء أخي الأكبر المحبوب من كل من يعرفه ليؤدي هذا الواجب العائلي ويثلج صدر أمه وإخوته ويشرفهم أمام أصهارهم الجدد فإذا به وبغير أي مقدمات يقع على الأرض أمام بيت الأسرة ويلفظ آخر أنفاسه بالسكتة القلبية أيضا، ويرحل أخي الأكبر الحنون عن الحياة وهو في الأربعين من عمره تاركا وراءه أطفاله الصغار، وأصغرهم لم يتم عامه الأول بعد..

وانقلبت أفراحنا مرة أخرى إلى أحزان وعشش الحزن في نفوسنا... وراحت أمي المؤمنة الصابرة تحاول هي أن تخفف عنا الفجيعة وتصبرنا حتى بدأنا نجاهد أحزاننا لنخفف عنها هي بعض الأمها.. وفي هذه الظروف الحزينة توقفت عن متابعة بابك لأني لم يعد في قلبي متسع للآلام والأحزان... ثم مضت الأيام تجر أذيالها ومر عام وخمسة شهور على رحيل شقيقي الأكبر.. وبدأت الحياة تأخذ دورتها مرة أخرى وبدأنا نفكر في تحديد موعد جديد لعقد قران شقيقي الأصغر إرضاء له، وهو من كان يبكي أخاه بكاءً مرًا ويردد دائما: لقد تيتمت مرتين بوفاة أبي ثم أخي وتم تحديد الموعد.. وانشغلنا بالإعداد للقران الذي اتفقنا على أن يتم في المسجد وأن يقتصر على الاحتفال الدينى مراعاة للظروف ودفع شقيقي للمأذون العربون وسلم إليه بطاقته الشخصية واتفق مع مصور للفيديو على تصوير عقد القران.. ولم تبق إلا ثلاثة أيام على عقد القران وأداء واجب عائلي طارئ.. هو زيارة ابنة أختي التي ترقد في مستشفى خاص بالقاهرة إثر إجراء جراحة كبيرة كى تستطيع أمي أن تحضر عقد القران وهى مطمئنة على صحة حفيدتها وهكذا سافرت أمي مع شقيقي العريس وزوج شقيقتي وابنة اختى إلى

القاهرة لزيارة ابنة أختى، وزاروها واطمأنوا عليها وتأسفوا لأنها ستغيب عن حضور القران وركبوا السيارة سعداء بأداء هذا الواجب في طريقهم إلى مدينتنا.. فإذا بسائق نقل فاجر قاتل غائب عن الوعي - بفعل كل أنواع السموم - يظهر فجأة في الطريق وهم على مشارف مدينتنا ويصدم سيارتهم صدمة مروعة ويقتلهم جميعا بلا رحمة: الأم والشقيق الشاب وزوجي الشقيقتين صحيحي البدن والعافية وصاحبي المركز المرموق واللذين لم يبلغ أطفالها سن الحضانة ولا تنجو من هذا الحادث سوى شقيقتى رغم ضالة جسمها وضعفها رحمة من رب العالمين بنا وبأمها التي فجعت في أمها وأخيها وزوجها وزوج شقيقتها الصغرى، ووقع الحادث البشع الذي زلزل كياننا وكتبت عنه لهول بشاعته الصحف ومنها صحيفتكم في مايو الماضي. وبعد منتصف الليل بكثير وصل الأعزاء وخرجت المدينة بكل من فيها تودعهم إلى مثواهم الأخير في موكب تقشعر له الأبدان، والذي نود ألا يتكرر بهذا الشكل المؤلم وبكل هذا الكم من الأحياء الراحلين.. وبدلا من موكب عرس أخي كان موكب وداع الأعزاء الذين أصابتنا فجيعتنا فيهم بكل أنواع الأحزان معا.. فأمى، وأنت تعرف ماذا تعني الأم: الحياة بكل ما فيها والمحور الذي أدور في فلكه... الأخ العريس: الدم والرحم والأنس والعزوة والحياة بكل مباهجها. أزواج الشقيقات: الأهل والعزوة والفخر والتباهي واللمة والألفة.. كل هذه المعاني الجميلة والأشياء الثمينة انتهت إلى غير رجعة في لحظة لا أدرى أكانت لحظة أم دهرا من الزمان. إن قلبي يقطر دما ولم تعد تجدي معي كلمات العزاء وقد كرهت كل شيء: الزمان والأيام وعملي ونفسي.. وكرهت الصيف والشتاء والليل والنهار وكرهت يوم الأحد الذي مات فيه أبي ويوم السبت الذي مات فيه أخي الأكبر ويوم الثلاثاء الذي مات فيه كل أهلي، وأصبحت أتمنى الموت وأخاف من كل شىء وأتخيل أني سأصحو ذات يوم فأجد بقية أحبائي قد فارقوني بعد كل من فقدت منهم في عام وبضعة شهور، وأخاف من كل دقة على الباب وكل جرس تليفون وكل ضوء نهار آت خوفا من أن يحمل إلىّ نذير شؤم جديد..

إنني أكاد أجن وأخشى على عقلي من شدة عدم استيعابه لما حدث، فهل صحيح كما قال الشاب في رسالة «العيون الحمراء» متحسرا على ذكريات أبيه وخاله؟ هل صحيح انتهى برنامج يوم الخميس الذي كانت تجتمع فيه الأسرة؟ وقد كان لنا بمثابة الفرحة واللمة والاجتماع عند أمى بعد عناء العمل ومدارس الأولاد وكان نجومه اللآلئ كل هؤلاء الراحلين وطابعه الضحكة والسمر والحديث في كل الموضوعات والائتناس بالأحباء مع الحبيبة الغالية أمي.. ونحن بأمي وبإخوتي وببعضنا البعض في غنى عن الدنيا كلها، وندور في فلك بعضنا البعض، لقد غاب كل ذلك الآن يا سيدى ويتمزق قلبي وأنا أرى شقيقتي التي تكبرني مباشرة والأخرى التي تصغرني وقد ترملتا فجأة وتيتم أطفالها وفقدوا «السند والعكاز» اللذين أشار إليها كاتب الرسالة الشاب.. وأنا على قدر من التدين وأقرأ القرآن وأصلي وأذكر الله كثيرا، لكن نار الفراق أشد وقد لجأت للمسجد للصلاة وسماع الدرس والوعظ ولم يجد كل ذلك معي، فهل ستهدئ كلماتك من فزعي وحزني وتخفف من ظلام الدنيا وسوادها حولي؟!.. إني آسفة للإطالة عليك لكنى لا أجد من أشكو إليه همي وأفتح له قلبى وأبوح له بمكنون وجدانى بعد أمي الحبيبة رحمها الله ورحمهم جميعا وألحقنا بهم في مستقر رحمته.

إنني أيضا من عشاق قراءات الشيخ الشعراوي أكثر الله من أمثاله ومتعه بالصحة والعافية وأمنيتي الآن أن أجلس معه وأتحدث إليه أنا وإخوتي، لعل قلوبنا تبرد قليلا إذا حدثنا عن الموت والصبر والجزاء ومكانة شهدائنا عند خالقهم.. لكننا يا سيدى كرهنا السفر والانتقال من مكان إلى مكان بعدما حدث لأحبائنا، فهل تراه يقبل أن يتكرم بزيارتنا لبعض الوقت عند ذهابه إلى بلدته التي لا تبعد عن بلدتنا سوى بضعة كيلو مترات ونحن نعلم أنه لا يتأخر عن نجدة أخيه.. كما نعلم أنك لا تتأخر عن بذل أي مسعى في هذا الشأن للتخفيف عن المنكوبين والمعذبين.. ومن تسميهم «جرحى الحياة».

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

أنتِ يا سيدتي تعرفين كل ما يمكن أن يقال لكِ في هذه المناسبات الحزينة ولعلك قد حفظت معظم مفرداته من كثرة ترديدها عليكِ، لهذا فليس لدى الكثير مما قد أضيفه إلى ما لا بد قد سمعتيه من الفضلاء من حولكِ.

غير أن هناك - فيما يبدو - أناسا لهم مكانة رفيعة في دولة المبتلين، وما أوسعها من دولة كما أن هناك مواقف مفجعة في الحياة يصدق عليها قول الرسول الكريم «هنا تُسكب العبرات» ومع كل ذلك فلسنا نملك إزاء أحزان الحياة الكبيرة إلا أن نتسلح ضدها بالإيمان والشجاعة وإرادة الحياة.. وبقبول أقدارنا والرضا بها.. والاعتراف لأنفسنا بأننا مهما استسلمنا للحزن فلن نعيد غائبة ولن نرد يوما مضى من أيامنا الحبيبة إلى قلوبنا ولن نورث أنفسنا سوى أكباد مقروحه وأجساد عليلة تتحالف مع أحزان الحياة علينا بعد أن خسرنا، كل ما خسرنا واستسلامك للحزن والخوف من المجهول - ولك بعض العذر فيه – يرجع في تقديري إلى رفض عقلك استيعاب ما

حدث والتسليم به كحقيقة من حقائق الحياة المؤلمة التي لا نملك لها دفعة، وليس من الحكمة ولا من كمال الإيمان أن يظل الإنسان أسيرا لموقف رفض ما حدث مهما كان مفجعا بغير أن يخطو خطوة إلى التسليم به وقبوله والتعامل مع الواقع على أساسه. فبذلك فقط تتخفف بعض أحزاننا.. وتسلمنا تدريجيا إلى نوع من الحزن الرفيق الذي يمكن معايشته واحتمال الحياة معه ولا مفر من ذلك ولا سبيل لنا سواه إذ ما دمنا لا نستطيع أن نغادر الحياة أو فندق الصيف الذي يستقبل النزلاء ويودع المغادرين كل حين كما كان يسميها الشاعر الألماني العظيم جوته، قبل موعد الرحيل فلا مفر أمامنا من أن نحاول أن نجعل إقامتنا فيه محتملة وليست جحيما متصلا تتقرح جلودنا فيه من لهيب الألم، والشاعر العربي يقول مخاطبة ابنه الذي احتسبه عند ربه:

أقرة عيني لو فدي الحي ميتا

فديتك بالحوباء أول من يفدى

لكن هل يملك «الحي» حقا أن يفدى راحلا.. بل هل يملك هو من أمر نفسه شيئا لكي يقدم فداءه أو لا يقدمه.. وهل نملك إلا أن نتصبر وأن نقول مع كل المبتلين والمهمومين «يا نفس لا تراعي» ولا أن تردد معهم قول الحق سبحانه وتعالى «وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا» مهما تعددت الأسباب واختلفت الظروف.. لا نملك غير ذلك فاهدئي نفسية يا سيدتي.. ولا تخشى على عقلك شيئا..

فأنتِ إنما تعانين من لسعة النار الحارقة التي لم يبرد أوارها بعد، لكنها لا بد أن تخمد تدريجيا وسوف تخمد لأن للإنسان قدرة هائلة على احتمال الآلام ومواصلة الحياة طاويا عليها جوانحه خاصة إذا ساعد نفسه على استدعائها لمواجهة أحزانه فاستجمعى قواك الداخلية للصمود أمام هذه المحنة الأليمة وتشاغلي عن أحزانك بالتماس السلوى والعزاء في أعزاءك الباقين من حولك.. وازدادى رعاية لهم والتصاقا بهم لأنه عند هبوب العاصفة تتلاصق الأجساد لكي تستمد من تماسكها قوة تثبت أقدامها في الأرض ومنع اقتلاعها.. وانشغلى برعاية ورود الحديقة الباقية وأفرغى في رعايتها كل أحزانك، وهي جديرة بذلك حقا؛ لأن قيمتها تزداد وتتضاعف في وجداننا بعد أن عصفت الرياح ببعض أزهارنا الغالية، أما عن رجائك لفضيلة الشيخ الشعراوي بزيارتكم فلست أعرف ما إذا كانت ظروفه وصحته سوف تسمحان له بتلبية هذا الرجاء أم لا، لكني سأبلغه له على أية حال وأرجو أن تكتبي إلى برقم تليفونك أو أبلغينى به مساء الاثنين القادم تليفونيا فلعله يستطيع أنِ يتحدث إليكم على الأقل فتصبّرى يا سيدتى: «... فمن يتصبر يصبره الله.. وما أعطى أحد عطاء خير.. أوسع من الصبر» كما جاء في الحديث الشريف وشكرا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خارج الدائرة!

أنا شاب في التاسعة والثلاثين من عمري.. نشأت طفلا وحيدا ووجدت كل ما حولي يدعونى لحب الحياة فنحن نعيش في بيت واسع في إحدى المدن النائية التي تحكمها تقاليد خاصة وأبي يعيش في إحدى الدول العربية ويرسل لنا ما يكفينا للحياة المريحة ووجدت نفسي في سن المراهقة فتيً مدللا تجاب كل مطالبى بلا مراجعة وإذا تأخرت أمي في تلبية أي مطلب لي أزمجر وأهدد وأتوعد بترك البيت وكلما تماديت جاءني صوت أبي في التليفون حانيا رفيقا ينصحني ويرجوني ويقول لي إنني كبرت وينبغي أن أتحمل المسئولية في غيابه، فأنتصح قليلا ثم سرعان ما أعود إلى عصبيتى وعدوانيتى بلا سبب واضح.. ووسط هذه الظروف فوجئت بأمي تلد شقيقة لي وأنا في السابعة عشرة من عمري فتضاربت أحاسيسي تجاه المولود الجديد. ما بين السعادة بأخ جديد.. والضيق به.. والخجل من فكرة إنجاب أمي وأنا في هذه السن.. وظللت أعاني هذه الأحاسيس المتضاربة لمدة سنة كاملة فإذا بي أفاجأ بأمي تنجب شقيقة جديدة! وكنت قد بدأت دراستي الجامعية فبدأت أحس بأني أنسحب تدريجيا من مركز الدائرة الذي كنت أشغله من قبل إلى هامشها وعاد أبي للإقامة نهائيا في بلدتنا بعد حوالي أربع عشرة سنة من الاغتراب وتفرغ لرعاية الطفلين والإغداق عليهما من حنانه فتعمق إحساسى تدريجيا بأن البساط يسحب من تحت قدمى وكان طبيعيا أن أتعثر في دراستي ولم يكترث أبي وأمي بذلك كثيرا بعد أن سئما تكرار النصح لى. فازداد توترى إزاء ما يبديه أبواى من عدم اكتراث بثوراتى وتهديداتي.. فإذا ثرت قالا لي: افعل ما بدا لك وإذا هددت بترك البيت قالا لي ليكن ما تريد وعد حين تشاء. وجن جنونى، ولم أغادر البيت واستسلمت للأمر الواقع ورضيت بوظيفة صغيرة حصلت عليها بمعجزة في مدينتي البعيدة.. وتعقدت شخصيتى أكثر كلما قارنت بين المستقبل اللامع الذي أرى نفسي جديرا به وبين الوظيفة الصغيرة التي لم تؤهلني شهادتي لأحسن منها ولاحظت بضيق وغيرة أن شقيقي وشقيقتي قد استحوذا على كل اهتمام أبي وأمي وأصبحت أنا خارج الدائرة نهائيا.. وبالرغم من أنهما يتحملان ثوراتي في صمت كأني قدر مكتوب عليمها ولا يستجيبان لاستفزازاتى فلقد كانا يلبيان لى مطالبي ولا يقصران تجاهي في شيء. ومضت سنوات العمر وأنا أزداد تعقد وكبرياء. فأنا أذهب إلى الوظيفة الحقيرة التي لا تبعد عن بيتنا سوى بضعة بيوت راكبا السيارة التي أصررت على أن يشتريها لي أبي حين التحقت بالجامعة.. وأترفع عن مخالطة صغار الموظفين البؤساء وعن الاشتراك معهم في المسامرة والحديث وأغدو إلى نادي المدينة للجلوس مع شلة الأطباء وضباط الشرطة ورجال القضاء الذين يسهرون فيه والذين أشعر أني من مستواهم وأسعى لاكتساب صداقتهم وتنفد نقودي بعد يومين من بداية الشهر.. فأمد يدي لأبي، والويل والثبور لو لم يستجب لتبذيرى وإنفاقي على مظهرى وكبريائى، وفي التاسعة والعشرين من عمري أردت الزواج وعرضت علىّ أمي فتيات من الأسرة والأقارب لكني صممت ألا أتزوج إلا فتاة من مستواى ومضت السنوات ومن تقبل بي لا أقبل بها ومن أقبلها لا تقبل بى حتى سرقني الزمن وتأخرت في الزواج وخلال ذلك كله كان شقيقي وشقيقتي يتقدمان في دراستها في يسر وهدوء

ويجمعهما حب غريب.. ويستذكران دروسها معا.. ويتحاشيانني بقدر الإمكان ويتحملان ثوراتى ورغبتي في فرض سيطرتي على البيت كله في صبر. ورغم قسوتي عليهما في بعض الأحيان فقد كنت أحسدهما على ما يحمله كل منها من حب للآخر. ولأبيهما وأمهما، وأراهما من غرفتي التي أجلس بها وحيدا يذاكران ويتناجيان ويتضاحكان أو يتشاركان في إعداد وجبة عشاء طريفة ويأكلان معا في سعادة.. فأزداد إحساسا بالوحدة والكآبة والانعزال ورغم ذلك فلم أحاول الاقتراب منهما..

وكبر شقيقاى ودخلا المرحلة الثانوية وتقدما في الدراسة وتقدمت أنا في العمر حتى بلغت الثانية والثلاثين وما زلت أعزب وحيدا منعزلا عن الناس.

ثم عدت ذات يوم إلى البيت فوجدت شابا وسيما في ضيافة أبي وأمي وشقيقي وحييت الضيف وانصرفت إلى غرفتي فاستدعاني أبي وعرفني بالشاب وقال لي إنه مهندس جاء عن طريق شقيقي ليطلب يد شقيقتى وإنهم يوافقون عليه جميعا من ناحية المبدأ وينتظرون رأيى باعتباري الأخ الأكبر.. فإذا بشياطين تثور فجأة في مواجهة الضيف وإذا بى أقول بصوت عال: ومن أدراكم أني سأوافق عليه.. لا لست موافقا..

وأحس الشاب بالحرج الشديد فاستأذن في الانصراف وانصرف ولم يعد مرة أخرى. واغتم أبي لما حدث. وبعد ذلك بعدة أسابيع فاتحني صديق لي موظف بإحدى المصالح في مدينتنا ويحمل مؤهلا متوسطا ويبلغ من العمر 33 سنة في خطبة شقيقتي، وبالرغم من أن كل ظروفه لا ترشحه للزواج منها حيث يكبرها بـ 15 سنة وليس من أسرة كبيرة ولا مستريحة مادية ولا صاحب وظيفة مرموقة فقد وجدت نفسي أرحب به وأدعوه لزيارة البيت بدون استشارة أبي واعتمادا على مكانتى وسيطرتي على الأسرة. جاء صديقى مع والدته وفاتحا أبي فلم يعترض لكنه أرجع كل شيء لموافقة شقيقتي.. وسألها عن رأيها فقالت إنها تفضل أن تكمل دراستها.. فاتفقنا على تأجيل بحث الموضوع إلى وقت آخر.. وما أن انصرف الضيفان حتى هجت كالبركان هياجا شديدا متهما أختي والجميع بأنهم يريدون إحراجى مع صديقي وأعلنت أن أختي لا بد أن توافق عليه شاءت أم أبت حرصا على كرامتي وكلمتي..

وأرادت أختى تهدئتى فطلبت مهلة للتفكير.. وتكررت زيارة صديقى للبيت دون أن نعطيه كلمة قاطعة، وكلما انتهت زيارته عدت للهياج والثورة على كل من في البيت وأبي صامت لا يملك لي شيئا.. وأمي صامتة عاجزة وشقيقي يحاول التفاهم معي بهدوء فأكاد أبطش به حتى يتدخل بيننا أبي وينقذ الموقف..

وفي وسط هذه الزوابع فاجأتنا أختي بإعلان موافقتها على الخطبة حسما للنزاع وطلبا لعودة الهدوء للأسرة ورغم إدراكى أنها توافق كارهة، فقد سعدت بموافقتها وتم تحديد موعد للخطبة.. وجاء صديقى ومعه أهله وتمت الخطبة وهنأنا جميعا شقيقتى رغم الحزن الواضح في وجهها، ورغم الدموع التي تفلت من عينيها وانصرف الخطيب وأهله.. وعاد كل منا إلى غرفته ومضت ساعة ثم فجأة سمعت

صرخة عالية فجرينا إلى مصدر الصوت فإذا بأختي والنيران تمسك بملابسها وهي تصرخ صرخات رهيبة وبكل ما استطعنا من قوة رحنا نحتضنها بالبطباطين لنطفئ النار وهي تصرخ صرخات تدمي القلب وتبكى..

ونقلناها للمستشفى على عجل فبقيت فيه أسبوعين لم تكف خلالها عن الصراخ والعويل والبكاء ثم.. ثم... فاضت روحها إلى بارئها..

وتركت وراءها الكآبة والحزن وعذاب الضمير.. ومنذ ذلك اليوم الأسود وأمي لا تكف عن البكاء.. وأبي يواسيها أحيانا ويشاركها البكاء في أحيان أخرى.. وشقيقي في حالة قاتلة من الحزن والوجوم واليأس لا يبكي ولا يتكلم ولا يخرج ولا ينظر إليّ.. وإذا نظر فبكل كراهية الدنيا وكل الاحتقار.

أما أنا.. فمن أنا.. وماذا فعلت.. وماذا جنيت على أسرتى وعلى أختي البريئة التي لم تغضب أحدا ولم ترد عليّ ذات مرة ردا جافا ولم تقابل إساءاتي لها إلا بالدموع الصامتة: أنا آسفة وهي غير مخطئة..

لو كان البكاء يفيد لما توقفت عنه لحظة.. ولو كان الندم يعيد ما راح فأنا نادم.. نادم حتى آخر العمر، فلقد استيقظ ضميري.. ولكن متى؟ إنني أنتظر كلماتك الحانية.. لعل أبي وأمي يجدان فيها ما يخفف عنهما نكبتهما.. أما أنا فإن شئت أن تسبني أقذع السباب فافعل فإني أستحق كل ما سوف تقوله.. وأريد أن أعاقب نفسي وأتطهر من ذنبي وأخفف عن أبي وأمي وشقيقي... فماذا أفعل.. وماذا تقول لي؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة الأليمة أقول:

ليس لك عندى يا سيدى سباب مقذع ولا شتائم، لكن لك عندى تحليل مؤلم لأسباب نكبة أسرتك بك التي بلغت قمتها الدرامية بهذا الحادث المفجع. فأنت يا سيدى نموذج «مثالي» لما تثمره التربية من كائنات بشرية تخصم من الحياة ولا تضيف إليها أبدا..

وظروفك التي نشأت فيها هي الظروف «النموذجية» لإفراز هذا النوع من البشر ابتداءً من التدليل الزائد عن كل حد للابن الوحيد إلى الاستجابة لكل طلباته ورغباته ونزواته بلا أدنى مراجعة أو ترشيد.. إلى الفزع الطفولي من تهديداته الجوفاء التي لا يستطيع عمليا أن ينفذها، وإنما يستخدمها فقط للضغط على الأبوين المتهافتين لإملاء رغباته إلى غياب الأب الطويل عن الإشراف على تربية الابن في سنوات التكوين الأولى ومرحلة المراهقة بغير حزم بديل من جانب الأم يعوض هذا الغياب إلى الصوت «الحاني» الذي كان يأتي عبر الأثير لينصح في رفق ولين ويكاد يتوسل بدلا من أن يأخذ بالحزم الرشيد. إلى تكريس الأنانية في هذه الأخطاء كلها.. إلى تفاعل أنانيتك واعتيادك الإحساس بأنك مركز الكون مع تغير المعاملة الفجائي من جانب أبويك وانصراف اهتمامها عنك بدون تدرج إلى شقيقيك ونفض يدها منك يأسًا وقنوطا بدون مقدمات وبدون محاولة جدية للعلاج.. إلى فشلك الدراسي

وتناقضه مع إحساسك غير المبرر بتفردك وامتيازك.. إلى عجزك عن التواصل مع أبويك وشقيقيك وزملاء العمل وافتقادك للأصدقاء الحقيقيين وما تعترف به أنت نفسك من عصبيتك وعدوانيتك إلى عزلتك المتكبرة وعجزك عن ممارسة الحب الإنساني لأي إنسان من أبويك إلى شقيقيك إلى الأصدقاء إلى المرأة لأن قلب الأناني لا يتسع غالبا لأكثر من حب الذات.

فتضافرت كل هذه العوامل السلبية لتثمر هذا «الأنا المتضخم» العاجز عن التواصل مع الآخرين والذي لا يقترب من أحد إلا آذاه أو جرح مشاعره ربما بغير قصد أحيانا.

ولقد كان من الممكن أن تظل كما أنت محدود الأثر والخطر على الآخرين لو لم تستجب لنوازع كبريائك الممقوتة وتقحم نفسك على حياة شقيقتك البريئة وتعتبر خطبتها لمن تعتبره صديقك وما أظن أنك تعرف نعمة الصداقة الحقيقية، مسألة كرامة شخصية لك فتتجاهل أبسط الاعتبارات التي يحرص عليها الإخوة الحقيقيون وهي سعادة الأخت ورغبتها فيمن تتزوجه.. فكانت الكارثة أن استجابت لك المسكينة كارهة لترحم أسرتها من الجحيم الذي صنعته لها، ثم حين تحول الأمر إلى واقع لم تحتمل مجاراتك فيه إلى النهاية فاستجارت بلهيب النار من لهب أنانيتك وقسوتك.

وليتها ما فعلت ولا استجابت لك من البداية ولا أرضت غرورك بقبولها وموافقتها وهي كارهة. وليتها واجهتك بالرفض بشجاعة حتى النهاية وليكن من أمرك ما يكون.. وليت أبويك كانا أكثر صلابة معك وأكثر قدرة على فرض إرادة الأسرة عليك أو إبعادك عن التدخل في حياة شقيقتك.. إذن لنجت الفتاة الوديعة من هذا المصير المؤلم.. ولنجت الأسرة كلها من هذا السعير..

يا إلهي.. كيف تقف نصوص القانون عاجزة عن القصاص من أمثالك؟

أليست القسوة العقلية التي تدفع فتاة وديعة للتخلص من حياتها جريمة بشعة تستحق العقاب الذي يعاقب به القانون على جريمة القسوة المادية؟

أليس الإكراه النفسي جريمة تستحق عقابا كعقاب جريمة الإكراه البدني؟

وأليس هذا قتلا بغير سلاح إلا سلاح القسوة والأنانية وضيق الأفق والتكبر الأجوف؟

إنك تنتظر مني كلمات حانية.. ولقد حاولت جاهدا أن أنسج بعضها فعجزت رغم صدق رغبتي في مواساة أبويك والتخفيف عنها إذ ماذا تستطيع الكلمات أن تقدم لهما ونكبتها قديمة ولم تبدأ بهذا الحادث الأليم وحده الله إذن عسى أن يخفف من أحزانها على هذه الزهرة البريئة.. وعسى الله أن يخفف من آلام شقيقك الذي فقد توءم روحه ورفيقة ملاعبه وصباه.

وعساك أنت أن تكفر عن جرائمك في حق أسرتك وفي حق الحياة بالتخلص من كل آثامك وأنانيتك وعدوانيتك بصدق الندم والتوبة والاستغفار وبانتهاج النهج القويم في

معاملة أبويك وشقيقك مدى الحياة وبالبكاء ندما على آثام لا يغسلها إلا موج الدمع الصادق ولا يطهرها إلا صدق التوبة.

وإني لأعتبر رسالتك هذه واعترافك بكل ما فعلت وإدراكك له ومراجعتك لحياتك على هذا النحو.. أول خطوة على هذا الطريق، فعسى أن تواصله للنهاية.

وقديما قال أحد الفلاسفة: حين تبدأ معركة المرء مع نفسه وحسابه لها يصبح في تلك اللحظة فقط جديرا بحمل لقب إنسان!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

البقع الزرقاء!

قرأت رسالة خارج الدائرة للشقيق الذي يحكي عن أنانيته وتسلطه على أسرته حتى تسبب في انتحار شقيقته البريئة بحرق نفسها.. فانفجرت الدموع من عيني حزنا عليها.. وعلى كل ضحايا الأنانية والقهر والتجبر في الحياة وأنا منهم. فلقد نشأت فتاة وحيدة بين أخوين يكبراني وأبوين طيبين مغلوبين على أمرهما وكان لي إخوة غير أشقاء من أمي تزوجوا وأقاموا في القاهرة.. في حين نقيم نحن في إحدى المحافظات ولأن أبي كان قد تزوج قبل أمي ولم ينجب فقد كان شديد اللهفة على الإنجاب وحين أنجبت له أمي طفلين غمرهما بحبه وحنانه وكرمه بالرغم من أنه عامل بسيط بإحدى الهيئات الحكومية ثم جئت أنا إلى الحياة فوجدت لى شقيقين مختلفين في الطباع أحدهما وهو الأكبر مثال للطيبة والحنان والعطف والآخر وهو الأوسط نبات برى متمرد على أي سيطرة وشديد الأنانية والشراسة مع الجميع وحين وصلت إلى السنة الخامسة الابتدائية أحيل أبى للمعاش وخاب أمله في أن يواصل ابنه الأكبر تعليمه في الثانوي العام لعدم حصوله على المجموع اللازم فالتحق أخي الأكبر بالتعليم التجاري وكذلك الشقيق الثاني أيضا.. في حين واصلت أنا تعليمى بتفوق وكان ترتيبي دائما في المدرسة الابتدائية والإعدادية الأولى وبدا للأهل أني سأكون أول من تحقق أمل أبيها في الوصول للتعليم العالي، وكان من الممكن أن أسعد بذلك لولا شقيقي الأوسط الذي يتفنن في إيذائي وضربى بلا سبب أو لأتفه الأسباب حتى يتورم جسمى وتنتشر البقع الزرقاء فيه، ويتعمد إهانتي وإذلالي أمام صديقاتي وزميلاتي في المدرسة حين يزرنني وأبى عاجز عن كبح جماح ابنه الشرس ولا يملك له إلا الرجاء والدعاء بعد أن تطاول عليه عندما حاول حمايتى منه وأمي أكثر عجزا. وأنا أبكي وأستجدي منه الرحمة كلها بدأ ضربى بقسوة وأستحلفه أن يكف عن ضربي وأقول له وأنا أتلقى الضربات باكية: يارب يخليك أنا أختك حرام عليك كفاية.. فيتمادى ولا يتركنى إلا جثة هامدة ويحدث ذلك كل مرة وشقيقي الكبير خارج البيت فلا أضرب إلا في غيابه حيث أنه الوحيد الذي يتصدى له ويحميني منه وتصبح المشكلة هي كيف نخفي عنه ما حدث.. وكيف نبرر له البقع الزرقاء والسوداء في وجهي وجسمي تجنبا لتجدد المشاجرات بينها بعد أن كثر بينه وبين شقيقي المتجبر العراك بسببي وظلت حياتي هكذا طوال طفولتي وصباى حتى استقر الجبن والرعب في قلبي من الشقيق إلى درجة أني كنت إذا دخلت غرفة ووجدت بعض ملابسه فيها تملكني الخوف وفزعت كأنه سيخرج من بينها ويضربني مع تأكدي أنه غير موجود في البيت..

ورغم هذا العذاب فقد كان ترتيبي الأول في الشهادة الابتدائية كما أشرت والتحقت بالمدرسة الإعدادية وخفف حنان أخي الأكبر وعطفه علىّ من جراحى وآلامى ومضت الأيام بخيرها وشرها إلى أن بلغت السنة الثالثة الإعدادية وكان شقيقي الأكبر وسندي الوحيد في الحياة قد أنهى دراسته التجارية واستدعى الأداء الخدمة العسكرية. وانفرد شقيقى الآخر بالسيطرة على مقاديرنا وفي يوم لا أنساه لأنه كان يوم عيد الأم منذ تسع سنوات وكانت المدارس تحتفل به، خرجت مع زميلاتي

فمررنا في طريقنا للبيت بالمدرسة الابتدائية للبنين المجاورة لمدرستنا وسمعنا الأصوات الصادرة من الحفل الذي تقيمه المدرسة في فنائها بهذه المناسبة فوقفنا على البوابة نتفرج لحظات ورفضت دعوة زميلاتي للدخول معهن رغم وجود تلميذات كثيرات في الحفل لأن هاتفا حذرني من الدخول خوفا من أن يكون أخي «المتوحش» في الداخل.. ولم أدخل.. لكن لسوء حظي لمحني شقيقي الذي كان موجودة بالفعل ورأيت عينيه تطلقان الشرر وهو ينظر إلى فهرولت إلى البيت وأنا لا أري الطريق من هول ما ينتظرني.. ورفضت تناول طعام الغداء مع أني أخرج للمدرسة بدون إفطار وسألني أبي وأمي عن السبب فصارحتها «بالكارثة» وناشدت أبي أن يحميني لكن ماذا يستطيع الأب الشيخ الضعيف أمام هذا الوحش الكاسر بعد أن ناله أذى لسانه في حالات مماثلة الكثير لقد آثر الانسحاب متألمة وغادر البيت حتى لا يراني وأنا أجلد وأضرب وحانت ساعة العقاب وعاد شقيقي سامحه الله وانهال علىّ ضربا وركلا وجلدا حتى تورم جسدى كله وانغلقت عيناي من الورم والهالات السوداء والزرقاء.. وأعلن الحاكم بأمره قراره الخطير بأني لن أذهب للمدرسة مرة أخرى وصعقني الخبر أكثر مما صعقني الضرب والإيذاء لأن المدرسة متنفسي الوحيد الذي أجد فيه نفسي مع زميلاتي اللاتي يحببنني ومع المدرسات والمدرسين والناظر الذين يحبونني ويشجعونني فقد كنت أكتب الشعر والزجل وألقيها في الإذاعة الصباحية وأشيع حولي جوا من البهجة والمرح رغم ما ألاقيه من عذاب وهوان فتوسلت إليه ألا يحرمني من المدرسة فلم يتزحزح عن موقفه ونمت كالقتيلة ولا أعرف كيف استغرقت في النوم فصحوت في الصباح الباكر فزعة على ركلات عنيفة وفتحت عيني مرتعبة لأجد شقيقى بركلنى بعنف ويبصق علىّ سامحه الله ويتوعدني بأنه.. ورائى ورائى والزمن طويل، كأن بيننا ثأرا قديما ثم غادرني فإذا بيأس الدنيا كله يهبط على ونهضت وجسمي كله يرتعش وكانت الساعة السابعة صباحا فوجدت نفسي أتجه إلى المطبخ ثم تناولت «جركن» الكيروسين وسكبته كله على نفسي حتى بلل جسمى وملابسي.. وأمسكت بعلبة الكبريت وأشعلت عودا ثم قربته من طرف ملابسي ورأيت النار تمسك بها وأنا لا أصرخ لكن آه... يا سيدى واه..

حين اشتدت النار وامتدت لجسمي.. مهما قلت لك فلن أستطيع أن أصف لك الألم الذي أحسست به، لقد رحت أصرخ وأصرخ وأصرخ وزلزلت صرخاتي الجدران وأنا أجرى كالمجنونة فإذا بأمى المريضة تحتضنني وأنا مشتعلة فتحترق يداها وهي تبكي وتصرخ وأنا أبكي وأصرخ واذا بأخي الظالم يختطفني منها ويلفنى ببطانية.. ونقلوني بسرعة بسيارة أحد الجيران للمستشفى، وكان أبي في ذلك الوقت خارج البيت يتسوق بعض مستلزمات البيت فأبلغوه بالخبر فجاء إلى المستشفى وهو يبكي بكاءً مرًا وكانت المرة الأولى التي أراه فيها يبكي بالرغم من إهانات أخي له المتكررة.

واحتجزت في المستشفى تحت العلاج ورقد أبي في البيت مريضا.. وجاءتني زميلاتي والمدرسات والمدرسون والناظر الفاضل.. ورأيت الدموع في عيونهم جميعا وهم يواسونني ويهونون علىّ ويعرضون علىّ مساعدتي في مراجعة دروس

بالمستشفى استعدادا للامتحان القريب وجاء أخي الطيب في أجازته وهو لا يعرف شيئا عما جرى لي وفي المحطة قابله بعض الأشخاص وأبلغوه بالخبر فلم ينتظر سيارة تحمله إلى المستشفى وإنا انطلق يجري بكل سرعته لمسافة أربعة كيلو مترات حتى دخل علىّ وهو يبكي.. وعلم الجاني بعودته فلم يجرؤ على دخول البيت وهو فيه واختفى حتى انتهت أجازة أخي، وعاد لوحدته العسكرية وظل يتفادى لقاءه والإقامة في البيت كلما عاد في أجازة لفترة طويلة..

أما أنا فقد بدأت أتماثل للشفاء وأكرمني ربي بأن لم تكن حروقى عميقة أو ظاهرة إلا القليل منها وجاءتنى مدرساتى أكرمهن الله يراجعن معى دروسى.. وزارني الناظر الفاضل وعرض على أن يعقد لى لجنة خاصة لامتحاني في المستشفى فاعتذرت بمشورة مدرساتي الفاضلات حتى لا يقال إني نجحت بالمجاملة ولأني كنت واثقة من نفسي وبعد أربعين يوما غادرت المستشفى.. وتقدمت للامتحان بعد عشرين يوما ووفقني الله في النجاح بمجموع معقول والتحقت بالمدرسة الثانوية لكن شيئا جوهرية كان قد تغير في روحي فأصبحت منطوية وعازفة عن الاختلاط بالزميلات وبالصديقات ما عدا صديقتين وساهمت آثار حروقي في هذا التغيير. وكف شقيقي الظالم أذاه عني خلال هذه الفترة ثم توفي أبي رحمه الله.. وأنهى أخي الطيب تجنيده وسافر للعمل في العراق وخلا الجو تماما لشقيقي الأوسط فإذا به يعود إلى ضربي وإيذائي من جديد وأنا بالسنة الثانية الثانوية ولم يجد شقيقي الطيب حلا لمأساتي معه سوى أن يرسل له من العراق نقودا لكي يلحق به ويعمل معه بعد أن أنهى تجنيده.. وسافر شقيقي المتمرد إلى هناك.. والتقطت أنفاسي لأول مرة منذ وعيت لنفسي.. وعرفت لأول مرة الحياة بلا رعب أو خوف لكني فقدت الكثير من حماسي للحياة.. فلم أبذل جهدا كبيرا في الاستذكار في الثانوية العامة ودخلت الامتحان معتمدة على ما استوعبته من شروح الدروس في الحصص ونجحت بمجموع ضئيل جدا لم يؤهلني إلا للالتحاق بمعهد فوق المتوسط وحصلت على الشهادة..

وسافرت إلى أخي من أمي في القاهرة للعمل.. فعملت شهرين في محل للملابس الحريمي ثم تم الاستغناء عني لأني لا أعرف كيف « ألاغى» الزبائن، وتجمع لدى مبلغ من أجرى فأرسلت لأمي بعضه وبقى معى خمسون جنيها فجاء شقيقي إياه وأخذها مني لأنه كان قد خطب ثم سافر للعراق مرة أخرى تاركة وراءه لأمه ديونا كثيرة، ثم عملت بعد ذلك في الشركة التي يعمل بها أخي لأمي وبعد عملي بأسابيع تقدم لى مهندس مطلق له طفلان وعمره تسعة وأربعون عاما وتقدم لي شاب من زملائي... ففكرت في أن الشباب لن يطيق رؤية ما لا يحب من آثار الحروق بالرغم من أن حروقي سطحية وليست ظاهرة أو مفزعة وفضلت قبول المهندس المطلق بالرغم من أن عمري 24 سنة.. وصارحته بوضعي وحروقي فأبدى تمسكه بي لأخلاقي وتدينى واتفقنا على أن ننتظر عودة شقيقي الأكبر من الخارج ليبارك الزواج فعاد بعد خمسة شهور وعرضت عليه الموضوع.. فرفضه قائلا أن حروقى ليست ظاهرة ولا مفزعة ولا تبرر أن أتزوج مطلقا له أولاد ويكبرني بـ خمس وعشرين سنة.

ورأى أن أترك العمل بالشركة وأن أعود معه للإقامة في بيتنا بالقرية الصغيرة.. ولم أعارضه وعدت معه سعيدة بحبه واهتمامه بمصلحتى وعدنا للحياة مرة أخرى تحت سقف بيت واحد أنا وأمي الحبيبة وشقيقي الحنون وعاد الأخ القاسي بعد قليل من العراق ورفض أن يقيم معنا في معيشة واحدة وأخذ كل ما يستحقه في ثمن البيت المتواضع الذي بناه أخي الكبير بما كان يحوله من مال على قطعة أرض مشتركة وعاش في مدينة مجاورة منفصلا عنا. وبالرغم من أني فشلت في الحصول على فرصة عمل كمدرسة بالحصة لكي أشغل نفسي وأوفر بعض النقود لشراء احتياجاتي وذلك لانعدام الواسطة.. وبالرغم من أن أخي قد فقد الأمل في صرف حوالاته المتأخرة عن ثمرة كفاحه وغربته في العراق في ظل أسوأ الظروف. الا أن الحياة تمضي.. ولقمة العيش الجافة في جو من الحب الأسرى والعطف والأمان أشهى من أي طعام في ظل الخوف والكراهية والشقاق والمشاكل والحمد لله على كل حال وأنا متأكدة أن الله سوف يعوضني عما عانيت وسوف يعطيني خيرا كثيرا عندما يأتي الأوان لأني أرعاه في كل شيء وأملى فيه كبير دائرة.. والسلام عليكم ورحمة الله.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

«الإنسان هو ما يفعله» كما جاء عرضا على لسان أحد شخصيات الأديب والمفكر الفرنسي اندريه مالرو، فإن اختار أن يكون كائنا مجردا من الرحمة والعطف والعدل والمشاعر فليؤهل نفسه لحصد كراهية الآخرين وازدرائهم ونفورهم ومعاملتهم له كمنبوذ قد يسلمون أحيانا اضطرارا بوجوده بينهم، لكنهم أبدا لا يتواصلون معه ولا يتسلل إلى قلوبهم ولا يسعدون باقترابه منهم. وليعتبر نفسه كما قال هنرى ثورو عمن يخلو من كل المشاعر الإنسانية الطبيعية «ابن عم أشجار الصنوبر وأحجار الصخور» وليس شقيق أحد من البشر أو ابن عمه.. مع أنه حتى الأشجار والنبات قد أثبت العلم أنها تحس وتشعر.. فكيف إذن ببني البشر؟ أما من شاء أن يكون بشرا كالبشر وكما أراد له خالقه أن يكون وأودع روحه وقلبه قبسا من رحمته وعدله.. فليهنأ بحب المحبين وعطف المتعاطفين واحترام الحياة وراحة القلب والضمير ولا بد أن حصاد شقيقك الأكبر العطوف الآن منك ومن أمه ومن الأهل والأصدقاء والمعارف عدا ما ينتظره من جوائز ربه الأخرى بعد حين فأيهما الخاسر الحقيقي وأيهما الفائز!؟

لقد كان شقيقك الأكبر عادلا معك في كل مراحل حياتك.. وبلغ قمة عطفه ورحمته بك حين أصر على ألا يوافقك على الاقتران بمن يكبرك بـ خمس وعشرين سنة، ليس فقط لأنه لم يكن مناسبا لكِ من ناحية السن أو أعباء الأبناء وإنها وهو الأهم لأن دافعك إليه كان الإحساس الخاطئ بأنك لا تستحقين من هو أكثر شبابا منه وأقل أعباء عائلية، لهذا لم يكن غريبا أن تتقبلي حكمه راضية لأنك على ثقة من أنه حكم صادر من موقع الحب والتقدير لك وليس من موقع الأنانية والإرغام.

أما شقيقك الآخر فليهنأ بها فعل وليحصد حصاد ما غرس ما لم يكفر تكفيرا كافيا، فلقد كان سوء فهمه لطبيعتك التي تميل للمرح والابتهاج في تقديري وتفسيره لها بأنها «تحرر» يتطلب التشدد معكِ السبب الظاهري لهذه القسوة الإجرامية التي عاملك بها.. لكن المؤكد أن أسبابه الخفية التي ربما لم يكن هو نفسه يعيها وعيا كاملا، كانت تكمن في إحساسه بالنقص إزاء تفوقك الدراسي وغيرته الذميمة منكِ بالإضافة إلى ما أشرت إليه أنت نفسك من تدليل الأب وضعفه معه، وعجزه عن كبح جماحه وشراسته الطبيعية أو المكتسبة إذ بالرغم ان هذه الظروف نفسها كانت قائمة تقريبا بالنسبة للأخ الكبير إلا أنها لم تثمر ثمارها الفاسدة في نفسه لميل غريزى فيه للإنصاف والتراحم.

على أية حال فلقد انقضت « تلك السنون وأهلها » كما يقول الشاعر ولم تبق إلا حفائر الذكريات الأليمة في النفس وبعض آثار لحظة اليأس المريرة التي أقدمت فيها على محاولة التخلص من حياتك فأنقذكِ ربكِ مما لم يقدّر عليكِ وأعاد تلك الثقة في نفسك وفي الحياة وفي الفضلاء من عباده الذين أحاطوك بعطفهم ومشاعرهم بعد الحادث ومع يقينى دائما بأنه لا يقدم على الانتحار إنسان لديه بقية من أمل في رحمة ربه ومع ما يمثله ذلك ن تناقض مع الإيمان بالله سبحانه وتعالى، فلقد تأثرت بوصفك المؤلم للمشهد الذي دفعك للإقدام عليه وبتفاصيل المحاولة ومشاعرها الرهيبة.. جنبك الله وجنب الجميع الآلام وعجل لك بحسن الجزاء إن شاء الله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حادث تصادم!

يسعدني أن أكتب إليك للمرة الأولى بعد أن قرأت رسالة «سائق الأتوبيس» التي تحكي قصة زواجه من طالبة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ومعارضة أبيها لهذا الزواج.. وتمنيت بعد أن قرأت الرسالة أن ألتقي بوالد هذه الفتاة وأن أحكي له حكايتى لعله يجد فيها ما يطمئن خواطره ويدفعه لأن يخفف من إصراره على طلاقها ولأن يتركها لاختبار الحياة كما نصحته أنت بكلامك الجميل مادامت قد تزوجت وقضى الأمر ولم يعد يجدي الإصرار على الطلاق..

فأنا سيدة شابة نشأت في أسرة ميسورة تقيم في أحد أحياء القاهرة الراقية وعند نجاحي في الثانوية العامة والتحاقي بكلية الطب اشترى لى أبي سيارة لكي أذهب إلى الكلية وأعود بها في أوقات متأخرة، ثم عدت ذات يوم متأخرة بعد انتهاء يوم الدراسة فوقع حادث تصادم بين سيارتي وسيارة شخص آخر وتعرضت سيارتي لأضرار كبيرة. وكان قائد السيارة الأخرى مخطئا فعرض علىّ تسوية الأمر وديًا وأن يدفع لى مبلغا من المال كتعويض فرفضت قبول المبلغ وطلبت منه أن يتولى هو إصلاح السيارة وإعادتها إلى ما كانت عليه بمعرفته، ووافق على ذلك وذهبنا معا إلى محل لسمكرة السيارات وتحدثت مع السمكري الشاب الذي يقوم بالعمل عن تكاليف الإصلاح والفترة التي يستغرقها. وتركت له مفاتيحها واسمى وعنوان الكلية ليبلغني بعد انتهاء إصلاح السيارة وأثناء جلوسي في الورشة التي تقع في حي شعبي عاملني الشاب بكرم وحياء وعرفت أن الورشة يملكها والده وتركته وهو يطمئنني إلى أن السيارة ستعود أحسن مما كانت وسوف يرسلها بعد السمكرة للدهان وسيتم كل شيء على ما يرام، وعدت إلى بيتي فوجدتني أفكر في هذا الشاب وكرم أخلاقه ورجولته. وبعد أسبوع جاءني السمري الشاب في الكلية لتسليمي السيارة فاقترحت عليه أن نجلس في مكان عام لأشكره على مجهوده معى... ولا أخفي عليك أن قلبي كان يخفق بشدة حين اقتربنا من المكان الذي سنجلس فيه. أما هو فكان في شدة الخجل والحياء.

وجلسنا وشكرته كثيرة وطالت الجلسة وأعطيته رقم تليفوني ومواعيد وجودي في الكلية. وبدأنا نلتقي يوم أجازته الأسبوعية من الورشة وربط الحب بين قلبينا وتعاهدنا على الزواج بعد انتهاء دراستي بكلية الطب وطلبت منه شيئا واحدة هو أن تكون له ورشة سمكرة خاصة به ليكون له كيانه المستقل ووعدني بتحقيق ذلك خلال الفترة الباقية من دراستى، وعند نجاحي أهداني سلسلة وخاتما من الذهب كانا بالنسبة لي أثمن من كل كنوز الأرض. وأبلغني أنه قد اشترى نصيب أبيه وشقيقه في الورشة وأصبحت ملكا خالصا له، وجاء اليوم الذي سيتقدم فيه لأسرتي. فجاء إلى بيتنا ومعه والده وأمه وأخوه وأخته المتزوجة ورحب به أبي ثم بدأ يوجه إليه الأسئلة التقليدية فسأله عن شهادته والكلية التي تخرج فيها وعمله إلخ وكنت بالطبع أعرف كل شيء عنه وأعرف أنه لا يحمل أي شهادة لكنه تخرج بامتياز في كلية الحياة التي تعلم. فيها كيف يعامل الناس ولم يكن أبي يعرف شيئا من ذلك، وانتهت الجلسة وانصرف الضيوف وبعد مشاحنات ومشاكل كثيرة انتهى أبي إلى رفض

هذا الزواج نهائيا. ولاقيت بالطبع الأمرين في المعاملة من أسرتى لتمسكى بهذا الشاب حتى هددني أبى بمنعي من الذهاب إلى عملي بالمستشفى لكني لم أتنازل عن حبي وأملى وبعد محاولات طويلة ذهبت مع حبيبي إلى المأذون ومعنا اثنان من الشهود وعقدنا قراننا في مكتب المأذون. ولست بالطبع أشجع الفتيات على أن يفعلن مثل ذلك فلا شك أنه خطأ كبير لكني كنت يائسة من إقناع أبي بقبوله وقبلت الذهاب للمأذون على غير إرادة أبي وأنا في أشد حالات اليأس من أن يغير موقفه.

وعرف أبي بعقد القران فهددني بإرغامي على الاستقالة وبإبلاغ الشرطة ضد زوجي واتهامه بخطفى.. وتم استدعاء زوجى فأظهر قسيمة الزواج وانتهى كل شيء.

وكان زوجي قد أعد عش الزوجية في الجيزة فانتقلت إليه وقاطعتني أسرتي وبدأت أفكر في حياتي الجديدة مع زوجي الذي يختلف عنى في كل شيء، لكن شخصيته القوية وأخلاقه ورجولته وحسن تفكيره غطت على كل الفروق. وعشت معه أيامي السعيدة ووفر لي كل متطلبات الحياة الزوجية وعلمني أشياء كثيرة في الدين لم أكن أعلمها وأنا الطبيبة الجامعية واصطحبني معه لأداء العمرة أكثر من مرة.. وأدينا فريضة الحج معا وأصبح زوجي كل شيء في حياتي ومنحنى أسرة صغيرة جميلة من بنتين وولد ووهبني الحنان والحب والاحترام. واستمررت في عملي وكنت أترك أطفالي في بيت والدته لأن أسرتي استمرت على مقاطعتها لى، ثم بدأت الحياة تعود إلى مجاريها بيني وبين أسرتي بعد أن رأتني أعيش في سعادة واستقرار مع زوجي.. وبعد أن قارنت حياتي الآمنة مع زوجي السمكري وأقولها بكل فخر بحياة إحدى قريباتي المتزوجة من زوج تتوافر فيه كل الشروط العائلية ومع ذلك فهي تعيسة معه لأن شخصيته ضعيفة ويهمل بيته وأسرته، وأهم شيء عنده هو جمع المال وليس لديه اعتبار لزوجته وأولاده ويتصرف وكأن البيت مجرد لوكاندة للنوم فقط..

هذه هي قصتي يا سيدى وأريد أن أقول: «تنكح المرأة لأربع لمالها وجمالها وحسبها ودينها فاظفر بذات الدين تربت يداك» كما قال الرسول الكريم.. وأرجو أن يتذكر هذا الأب الذي يصر على طلاق ابنته أيضا الحديث الشريف الذي يقول ما معناه: «إن جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوجوه فإن لم تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير» والدنيا في النهاية زائلة يا سيدي ولا ينفع الإنسان إلا عمله حين لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وأدعو الله لهذا الأب أن يتقي ربه في ابنته حتى وإن أغضبته بخروجها على طاعته وزواجها من هذا الشاب في مكتب المأذون.. فقد تزوجت في النهاية على كتاب الله وسنة رسوله وأدعو الله لهذه الفتاة بدوام المحبة وحسن العشرة والذرية الصالحة وبأن يظل زوجها على عهده معها فلا يظلمها يوما لأنها اختارته وتحملت العناء من أجله.. وبقدر سعادتها معا سوف يعود الوفاق بينها وبين أسرة الفتاة كما حدث معي وكما سامحني أبي وأمي وغفرا لي خروجي على إرادتهما منذ سنوات والحمد لله كثيرا على ذلك وأرجو أن تنشر قصتي وأن تختار لها عنوان «السمكري» أو «الحب لا يعرف المستحيل» أو أي عنوان آخر من عناوينك المؤثرة والسلام عليكم ورحمة الله.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

لكل قاعدة استثناء دائما يا سيدتي. وإذا كنا نقول إن قوانين الحياة العادية أولى دائما بالاتباع فلأننا لا نستطيع أن نقيس على الاستثناء ولا نستطيع أن نجعل منه قاعدة عامة تصلح لكل زمان ومكان والتكافؤ والتقارب بين الزوجين في المستوى الأسرى والاجتماعي والثقافي شرط من أهم شروط النجاح في الزواج، ونحن نحرص قدر جهدنا على أن نتوخاه بدافع الأمل في تجنيب أعزاءنا سوء الحظ ومرارة الفشل في الزواج وقد نتوخى كل الشروط التي يقضي بها العقل والدين ثم نصدم بعد ذلك بفشل الزواج وانهياره وقد يخالف زواج كل هذه الشروط ثم يكتب الله له النجاح والاستقرار لكننا مع ذلك لا نستطيع إلا أن نتبع قوانين الحياة وأحكام العقل حتى وإن كانت لها استثناءات مخيبة للآمال ولا نستطيع من ناحية أخرى إزاء قصة كقصتك إلا أن نسعد بسعادة طرفيها وأن نتمنى لها دوام السعادة والهناء. والتوفيق في الحياة الخاصة - في النهاية يا سيدتي - هبة يهبها الخالق سبحانه وتعالى لمن يشاء ويحرمها من يشاء والسعادة أيضا لغز شخصي لا يبوح بأسراره إلا للموعودين بها.

على أنك لو راجعت نفسك لعرفت أن سعادتك الخاصة بزوجك وأطفالك لم تخلص لك كاملة إلا بعد أن عادت المياه لمجاريها بينك وبين أسرتك. وإلا بعد أن غفرت لك أسرتك خروجك على طاعتها وزواجك في مكتب المأذون كمن لا أهل لها ولا عشيرة.. ولولا ذلك لظل هناك دائما ما ينغص عليك سعادتك ويذكرك دائها بأنك تعيشين في «المنفى» وليس في «وطنك» الخاص. ووطن كل إنسان الأول هو أسرته وأهله وعشيرته.. ونحن كما قال بطل مسرحية «سوء تفاهم» لألبير كامي وهو يبحث عن أمه وأخته اللتين هجرهما في صباه «لا نستطيع أن نسعد في المنفى أو في النسيان ولا نستطيع أن نظل غرباء على الدوام» وقد غدت منفاك الاختياري حين عدت لأسرتك وعادت إليك، ولاشك أن شخصية زوجك المدينة الرصينة التي تعلمت منها الحكمة وحسن معاملة الناس في كلية الحياة» كما تقولين قد قربت المسافات بينك وبين أسرتك، فلقد حقق لك آمالك في الحياة الزوجية المستقرة وأحسن عشرتك، وأسرتك حين رفضته إنها رفضته خوفا عليك من أن تشقى بحياتك معه بعد أن تهدأ العواطف المشبوبة وتمتحن الحياة صدق المشاعر وعمق الارتباط. ومادامت حياتك معه قد بددت مخاوفها وأثبتت لها عكس ظنونها ففيم يرغب الآباء والأمهات أكثر من أن تسعد فتياتهم بالزواج وتستقر بهن سفينة الحياة؟ مع تمنياتي لك ولزوجك بصادق السعادة ودوام الهناء إن شاء الله.

∞∞∞∞∞∞

بذور السعادة!

قرأت رسالة «حادث تصادم» التي تروى فيها طبيبة شابة من أسرة طيبة كيف تعرفت بزوجها سمكري السيارات غير المتعلم حين وقعت لسيارتها حادثة.. وكيف أحبته وتزوجته رغم رفض أهلها ومقاطعتهم لها وسعدت بزواجها منه ومازالت سعيدة وتزداد سعادتها يوما بعد يوم.

وكيف نال احترام أهلها بعد أن لمسوا سعادتها بأسرتها الصغيرة وأبنائها وأسرة زوجها التي تحبها وتحترمها في حين شقيت أختها التي تزوجت من زوج يتكافأ معها في كل شيء ورغم تأييدى لرأيك الذي علقت به على رسالتها من أن لكل قاعدة استثناء وأن القاعدة هي ضرورة الحرص على التكافؤ بين الزوجين وأن الاستثناء وإن تكرر فإنه لا يصلح لأن يكون قاعدة إلا أني رغم كل ذلك أريد أن تنشر هذه الرسالة لكي تعرف كاتبة الرسالة أن حالتها هي الاستثناء فعلا وأن تجربتها لا تصلح للتعميم لكيلا تنخدع الفتيات بوهم الحب بلا أي تكافؤ في الدين والنسب والمال والحرفة بين الطرفين، فتكون النتيجة هي تعاستهن، فأنا زوجة لأستاذ في الجامعة ومنذ سنوات جاءني ابني الذي تخرج في كلية الهندسة ليعلن لى رغبته في الزواج من فتاة لا تناسبه في أي شيء لا في الأسرة ولا الثقافة ولا التعليم ولا أي شيء، وأصر على الزواج منها رغم معارضتنا وتزوجها ووقعت القطيعة بيننا وبعد زواجه منها بعدة شهور بدأ ينفر من طريقتها في الكلام وتناول الطعام ومعاملتها له وللناس ويحس بالفرق بين طريقتها معه وطريقة شقيقاته مع أزواجهن.. ثم عاد فجأة وأبلغنا أنه طلقها وفرحنا بذلك وأعطاه أبوه مبلغا من المال لكي يعوض به زوجته عن الطلاق. وبعد عامين بدأت أفكر في تزويجه من فتاة ملائمة له ففوجئت برفض كل من تقدمنا لهن له لا لشيء سوى لمعرفتهن بحكاية الفتاة التي تزوجها... إلى أن أحب زميلة له مهندسة فنصحته بألا يروى لها تفاصيل كثيرة عن زوجته السابقة، ورحبت الفتاة به وتقبلت بروح طيبة حكاية زواجه السابق وقدرت أن فشله سوء حظ يمكن أن يصادف أي إنسان، ومضينا في الإجراءات ففاجأتني قبل الزفاف بعشرة أيام فقط بالسؤال عن كل التفاصيل الخاصة بزوجة ابني السابقة ورويت لها كل شيء بلا كذب فإذا بها تعتذر عن عدم إتمام الزواج وتسوق لذلك حججا كافية لأي أسرة لأن ترفض معاشرة ابني، وانهار ابني عند هذا الحد ودخلنا في دوامة العلاج النفسي والعصبي ومضت خمس سنوات على قصته ومازال يندب حظه ويندم على خروجه على أبويه بعد أن بلغ من العمر اثنين وثلاثين عاما ولم يتزوج بعد.

هذا عن ابني أما عن أخي الأكبر الذي يشغل أرقى المناصب وله شهرته الكبيرة في مجاله فقد فاجأنا منذ سنوات قليلة وبعد أربع وعشرين سنة من زواجه من سيدة فاضلة من بنات الحسب والنسب. وبعد أن أصبحت ابنته طبيبة. بأنه يرغب في الزواج من فتاة في عمر ابنته لا تناسبه من كل الوجوه وبدعوى أنه يريد أن يجدد شبابه، فرفضت أمي وحاولت أن تعيده لصوابه بلا فائدة ورفضت زوجته قبول هذا الوضع وهجرت بيتها إلى بيت أبيها. ورفض أبناؤه أن يعيشوا معه بعد زواجه من

فتاته وقاطعناه كلنا ووقفنا إلى جانب زوجته في طلبها للطلاق منه إلى أن تم بالفعل، ثم تقدم لابنته طبيب فرفضت الابنة أن يطلبها خطيبها من أبيها وأصرت على أن يطلبها من عمها بل ورفضت أن يحضر الخطبة وشجعتها أمي على هذا وأثر كل ذلك في النهاية على شقيقي فأصيب بنوبة قلبية ولازم الفراش لفترة طويلة فإذا بمن تزوجها لتجدد له شبابه تتذمر وتضيق به وتتصل بنا لكى نذهب نحن لتمريضه لأنها ليست مستعدة لدفن شبابها مع رجل مريض إلا إذا دفع لها كل شهر مقابلا ماليا سخيا وتكشفت لنا أشياء أخرى مؤلمة وحزنت أمي لمصير ابنها الذي قالت إنه ظلم نفسه وزوجته وأبناءه جريا وراء خرافة تجديد الشباب! ورحلت عن الدنيا وهو مريض، وتماثل للشفاء فلم يجدها على قيد الحياة ولم يودعها.. وأحسسنا بندمه فطلبنا من زوجته السابقة أن تعود إليه لكنها أبت العودة له ولها الحق في ذلك بل إن ابنها طالب الطب يشجعها على الزواج من إنسان فاضل له مركز مرموق كمركز أخى ويشجعها معه باقي أولادها! وأنا حائرة بين أخي الذي يندب حظه الآن ويندم على فعلته التي هزت كيان أسرته ومركزه وبين ابني الذي ترفضه الفتيات وكل ذلك بسبب الزواج غير المتكافئ وسوء الاختيار.. فأرجو أن تقول ذلك لقرائك حتى لا يتأثروا بها قالته كاتبة قصة «حادث تصادم» ويتغافلوا عن أهمية التكافؤ والتناسب بين الزوجين ويندفعوا وراء رغباتهم دون روية ودون اعتبار لآراء الجميع وإلا أصبح الزواج نقمة وليس نعمة.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

كل منا يا سيدتي يطلب لنفسه السعادة ويتوسل إليها بالوسائل التي يتصور أنها سوف تحققها له. فليس منا من يقدم على الزواج وهو «يضمر» بينه وبين نفسه أن يحيا حياة تعيسة شقية وأن يشقى معه من سوف يشاركها رحلة الحياة لكن السعادة ليست معادلة رياضية إذا صحت كل عناصرها فلابد أن تكون نتيجتها صحيحة أيضا وإنها هي لغز شديد الخصوصية لا يعرف أحد كل أسراره لهذا فقد تتوافر كل الأسباب التي ترشح الإنسان للسعادة في الزواج. ثم يشقى بزواجه ويفشل، وقد ينقصه بعض هذه الأسباب أو معظمها..

ومع ذلك فقد يسعد بحياته ويرضى عنها. لهذا فليس في مقدورنا ونحن نتلمس خطانا على طريق السعادة سوى أن نتوخى فقط الظروف الطبيعية التي تهيئ لنا بيئة أكثر خصوبة من غيرها لنمو بذور السعادة ثم نرفع أيدينا إلى السماء داعين ألا تموت البذور وأن تثمر ثمارها الطيبة في حياتنا هذه الظروف الطبيعية بكل تأكيد التكافؤ أو التقارب بين الطرفين في المستويات الأسرية والاجتماعية والثقافية والمادية. ومنها كذلك بالتأكيد توافر الحب والتفاهم أو على أقل تقدير القبول النفسي للطرف الآخر والتطلع الدافق للسعادة.. والرغبة المتبادلة في إعانة السفينة على الملاحة في مياه هادئة. أما تحدى العقل وقوانين الحياة والخروج على المألوف بغير دوافع اضطرارية تفرض هذا التحدي وتجعله الاختيار الذي لا مفر منه فإنه يرشح للفشل أكثر مما يرشح للسعادة، ونجاح بعض حالاته كما قلت مرارا لا نملك معه إلا

الاحتفال بسعادة أبطاله... مع التأكيد من جديد بأن تكرار الاستثناء لا يجعل منه قانون ولا قاعدة، وقد قلت لك مرارة ولست بحاجة لتكراره، لكن ذلك لا ينبغى أن يمنعنا من الاطلاع على تجارب الآخرين والاستفادة بدروسها والإنصات باحترام لوجهة نظر أصحابها واستكشاف أسرار معادلتهم الخاصة التي حققت معهم لغز السعادة رغم خروج التجربة على المألوف.. وهذا ما أفعله مع مثيلات تجربة «حادث تصادم».

وفي الحياة يا سيدتى رغم كل ما قلت الكثير مما يتفق مع قوانين الحياة ولم يكن مصيره إلا الفشل والتعاسة.. وفيها القليل الذي يتعارض معها وكان نصيبه رغم ذلك النجاح والسعادة وفي كل الأحوال فليس علينا في سعينا المشروع إلى السعادة إلا أن نتوخى القواعد المألوفة ونتجنب بقدر الإمكان ما يتناقض مع قوانين الحياة الطبيعية.. وفي قصة ابنك فإني لا أعتقد أن مجرد زواجه من فتاة لم تكن تناسبه اجتماعيا وأسريا وثقافية هو وحده الذي وقف دون زواجه من أخرى ملائمة. وإنما أعتقد أن هناك أسباب أخرى أهم قد يكون منها أن كثيرات يا سيدتي يتخوفن ممن يقدم على الطلاق بعد شهور قليلة من زواجه خاصة إذا كان قد تحدى الجميع بهذا الزواج ويتصورن أن من يطلق بهذا اليسر يسهل عليه الإقدام على الطلاق عند أول عثرة ويحكمن على مشاعره بعدم الثبات بدليل سرعة تخيله عمن حارب الدنيا ليتزوجها بعد شهور من زواجه منها.

إذن فهو تخوف من افتقاد الأمان معه أكثر من أي شيء آخر كما أن سهولة تحديه لإرادة أهله تثير مخاوف البعض من الارتباط بمن يتصورن بناء على تجربته أنه لا يقيم وزنا كبيرة للأهل ويستسلم للعناد بسهولة وللاندفاع بلا تروٍ، كما قد يكون منها أيضا سوء فهم بعض الفتيات لأزمته النفسية والعصبية عقب فشل مشروع زواجه، وتخوفهن من تداعياتها، مع أن كل إنسان لا يكاد يخلو من عارض نفسي أو عصبى وان لم يهتم بعلاجه.. وفي كل ذلك فقد يكون بريئة من كل هذه الظنون بعد أن تعلم التجربة. لكنها تبعات تجربته ولا مفر من أن يدفع ثمنها. وعلى أية حال فإن حل مشكلته ليس بعسير فيا أكثر من هن على استعداد لتفهم ظروفه والترحيب به، بشرط أن يكون قد استفاد من أخطائه.. وأدرك حقيقة الانطباع الخاطئ الذي أعطاه للآخرين عن نفسه باندفاعه في تحدي إرادة أبويه.. ثم في التسليم بصحة وجهة نظرهم بعد شهور قليلة وطلق خلالها فتاة لا ذنب لها في سوء اختياره من البداية وربما لم تسع إليه.. ولم يكن عدة أن ينتظر منها أن تتعامل مع الحياة بطريقة شقيقاته. أما شقيقك فلعل موقف أبنائه الذين يشجعون أمهم على الزواج من غيره هو أغرب ما قرأت في رسائل أصحاب المشاكل في الفترة الأخيرة فالوضع الطبيعي هو أن يشجعوها على العودة إليه مهما كان استياؤهم من تصرفه وضيقهم به.

ولا تفسير لذلك عندي إلا أنه فيما أتصور لم يتخلص من زوجته الثانية التي حلم واهما باستعادة شبابه على يديها ويريد أن يعيد زوجته الأولى إلى عصمته مع استمرار التجربة المحكوم عليها بالفشل طالت أم قصرت، وطريق النجاة بالنسبة له لابد أن يبدأ بإصلاح الأخطاء وإنهاء التجربة المخالفة لقانون الحياة مع تعويض شريكته فيها تعويضا عادلا..

وأن يبذل جهدا مخلصا لاستعادة أبنائه ولاسترضاء زوجته الأولى فيكون أبناؤه حينئذ عونا له على ترميم البيت المنهار وإعادة بنائه وهذا ما يطالبهم به الشرع والدين وهذا أيضا حق أبيهم عليهم مهما كانت أخطاؤه، ومهما بلغ استياؤهم مما جرى. والا أثموا بمقاطعته واستعداء أمهم عليه وحرمانه من حق الولاية عليهم كما فعلت ابنته عند خطبتها. وشكرا.

∞∞∞∞∞∞

رجل البيت

أكتب إليك بعد فشل في اتخاذ قرار مناسب في مشكلتي.. فأنا شاب في الثامنة والثلاثين من عمرى، نشأت في أسرة طبيعية من أم وأب فاضلين وثلاث شقيقات أنا أكبرهن. ومنذ طفولتي البعيدة حرص أبي الذي كان مربية فاض؟ ووكيلا لإحدى المدارس الثانوية على أن يغرس في الإحساس بالمسئولية العائلية، وبأنني رجل البيت من بعده لأن شقيقاتى «بنات» ويحتجن لمن يحميهن، وأنا هذا الرجل الذي سيتحمل مسئوليتهن من بعده وكان هذا الحديث يرن في سمعى كثيرا ويشعرني بذاتى وربما دفعني في سن الجهل إلى تجاوز الحدود أحيانا في علاقتي بشقيقاتي وإصدار الأوامر لهن بلا مبرر مقنع بزعم حمايتهن من الأخطار أو سوء نية أطفال الشارع، وكنت أفاجأ باستجابتهن لأوامرى بلا مناقشة حتى وإن تضجرن من بعضها، أما أمي فقد كانت دائما راضية عن تصرفاتى وتؤكد دائما بأن وراء مظهري الجاف هذا قلبا يفيض حبا لشقيقاتي وأمي وأبي، ومضت حياتنا في هدوء، ولم تشهد مشاكل كبيرة، وفي سن المراهقة رددت نفسي بصعوبة عن ارتكاب أي تصرف لا يشرفني أن يعرفه أبي وأمي عنى، أو لا أوافق على أن يرتكبه أحد مع شقيقاتى، وقبل أن أتم السابعة عشرة من عمرى، عاد أبي من عمله ظهر يوم حار واضح الإجهاد. ورفض أن يتناول الغداء معنا وطلب تركه وحده لينام وبعد قليل فاجأته أزمة قلبية لم تمهله طويلا وصعدت روحه إلى بارئها وهو يركز نظره على عيني ولا ينطق سوى هذه العبارة الأليمة: «إخواتك البنات»..

ورحل عنا أبي الطيب رحمه الله.. وعرفت بعد رحيله لماذا كان يلح على هذه الفكرة منذ طفولتي، لقد كان مريضا بالقلب طوال عمره ويحس دائما بأن العمر لن يطول به لكي يطمئن على بناته، فأرادني أن أكون امتدادا له في حمل المسئولية. وواجهت أسرتي الحياة بمعاش أبي البسيط وبإيراد ضئيل لا يتجاوز بضعة جنيهات كل سنة من إيجار فدان تملكه أمي وعرفت في هذه السن معنى المسئولية عن أسرة من أم وثلاث فتيات أكبرهن في الخامسة عشرة وأصغرهن في العاشرة، وجعلت هدف الأسرة هو نجاحنا جميعا في دراستنا بلا تخلف، أما نجاحي الأكبر الذي حلمت به فقد كان ستر شقيقاتى وحمايتهن إلى أن يتزوجن وتصبح كل واحدة منهن في مسئولية رجل آخر غيري.. وساعدتني أمي وشقيقاتى في تحقيق الهدف بروح الحب والشعور بالمسئولية السائد بيننا، وتقدمت أنا في دراستي حتى التحقت بالجامعة، وخلال دراستي الجامعية تقدم لكبرى الشقيقات وهي في عامها الجامعي الأول شاب من أقاربنا يعمل بالتجارة ووجدت منها ميلا إليه وخوفا من أن أرفضه لأنه لم يكمل دراسته بعد الثانوية العامة. وكنت أعرفه بالطبع وأستريح لأخلاقه وشهامته فباركت خطبتها وسعدت به شقيقتى والأسرة..

وبدأت أعمل إلى جانب دراستي لأواجه متطلبات الزواج القريب وعملت في كل أنواع العمل التي تتخيلها ولا تتخيلها لأدخر بعض المال لشقيقتي. وعملت في عملين في اليوم الواحد وخمس عشرة ساعة كل يوم في أحيان أخرى إلى أن اقترب الزواج وحان موعد شراء الأثاث فذهبت إلى مستأجر فدان الأرض الوحيد وهو من

أقاربنا البعيدين أيضا وطلبت منه شراء ثلثه بثمن عادل أجهز به شقيقتي، وأبلغته بأنى سأطالبه عند زواج كل أخت من أخواتى بشراء ثلث الفدان لأسترها بثمنه وإلا فإني لا أعرف ماذا سيكون من أمري، وكان الرجل طيبا فلم يبخسنى حقي وأقسم أن يساعدني على حمل هذه المسئولية. وتزوجت شقيقتي وهي طالبة بالسنة الثالثة بكليتها بطريقة مرضية وسعدنا سعادة لا توصف وكسبت أسرتنا رجلا ثانيا، وتخرجت وواصلت العمل في كل أنواع العمل إلى أن وفقت في العمل بشهادتي في إحدى الشركات العامة وعملت عملا إضافية بعد الظهر، وتقدم لشقيقتي الثانية شاب يعمل في وظيفة لها مظهرها البراق ومرتبها المحدود فرجعت إليها فوجدت منها قبولا له.. وتحريت عنه فأكدت إلى التحريات أمانته ورجولته فتوكلت على الله وخطبتها إليه. وكانت الأسعار قد ارتفعت كثيرا عن مرحلة زواج شقيقتي الأولى فلم يسعفني العمل الإضافي بمرتبه الضئيل فتركته وركبت سيارة أجرة بعد الظهر لأوفر أكبر قدر ممكن من النقود، وبعد عام من العمل عليها ذهبت بها إلى قريبى مستأجر الأرض وذكرته باتفاقنا فلم يتردد وأعطاني المبلغ المقسوم، وتزوجت الشقيقة الثانية، وبعد زواجها تركت سيارة الأجرة لأستريح بعض الوقت قبل أن أستأنف الكفاح مع الشقيقة الثالثة. وخلال ذلك كله كانت شقيقاتي يلححن علىّ بالارتباط بفتاة مناسبة قبل أن يتأخر بى العمر ويعرضن على صديقاتهن، فلا أجد في نفسي ميلا لأي منهن، كما أني لم ألتق بمن لفتت نظرى إليها ربما لاقتناعي الداخلي بأني لست أهلا للزواج الآن. أما أمي فلم تكف عن تذكيري بألا أنسى نفسي حتى لا يسرقني العمر.

وواصلت حياتى ثم تقدم لشقيقتي الصغرى معيد بالكلية التي تدرس بها وابن لأستاذ جامعي والتقيت به فاستشعرت أنه مختلف عن صهريّ الآخرين وأنه يضع حاجزًا زجاجيًا بينه وبين الناس، ومع ذلك لم أشأ أن أحكم عليه بمشاعري الأولى، ووازنت بين كل الظروف فوجدتها لصالحه، ووجدت أختي راغبة فيه، فأعلنت موافقتى واحتفظت لنفسي بتحفظاتي، وتمت الخطبة، ولاحظت من البداية أن الخطيب الجديد يهتم كثيرة بالرسميات والشكليات فلفت نظره إلى أننا ناس بسطاء نقيم الناس بأخلاقهم وشرفهم ولا نريد إلا أن نحيا في سلام. لكن المطالب توالت، ولاحظت لأول مرة منذ توليت مسئولية شقيقاتي أن شقيقتي الصغرى تخذلني في بعض المواقف وترى الحق في جانب خطيبها، وبعد مناقشة حول هذا الموضوع فوجئت بأمي تصفعها وتنفجر فيها وهي تتهمها بالجحود ففزعت وأسرعت بالحيلولة بينها وسحبت أمي إلى خارج الحجرة وأنا أهدئها وأطالبها بأن تتفهم عذر شقيقتي وصغر سنها، وعرفت في هذه اللحظة أني مطالب بمضاعفة الجهد لكي أتم رسالتى فعدت لسيارة الأجرة وواصلت الليل بالنهار في العمل ففوجئت بعد عدة أسابيع بخطيب أختي يبدي «ملاحظة» استفزازية حول عملي على السيارة، وتأثيره على مكانته.. ومكانة أسرته، وفكرت للحظات في أن أذكره بحريتي في أن أعمل أي عمل شريف أختاره.. وحريته هو في أن يصاهر من يشاء من الناس لكني تذكرت شقيقتي ومبلغ حرصها على خطيبها فبلعت الإهانة.. وأنا أحس بمرارة شديدة ووعدته بأن أفكر في الأمر وعلمت أمي وشقيقاتى المتزوجتان فغضبن وانهلن لومة وتقريعا على شقيقتي الصغرى وطالبتنى بفسخ الخطبة.. فأبيت ذلك واحترت ماذا أفعل خاصة وأن

الخطيب المعتز بنفسه وأسرته لم يعرض بديلا عما طلبه ولو بالتخفيف من مطالبه هو، وزاد الأمر سوءا أن قريبى مستأجر ثلث الفدان الأخير قد انتقل إلى رحمة الله ورفض ورثته شراءه لأنهم في غنى عن دفع مبلغ من المال مقابل قطعة أرض هي في حوزتهم بلا شراء، وضاقت الدنيا في وجهي وبحثت عن عمل في الخارج بكل الطرق، وسافرت في أجازتى السنوية إلى إحدى الدول العربية وعملت سائقة بها وعدت ببضعة جنيهات.

وفي هذه الأثناء واجهت اختيارا هاما في حياتي حيث عرضت علىّ فرصة بنفس الشركة التي أعمل بها موظفا، للعمل كسائق لأحد أتوبيسات الشركة السياحية التي تقوم برحلات طويلة إلى المواقع المختلفة، وكان الاختيار صعبا لأني إذا قبلت هذا العمل خرجت من سلك الوظيفة الإدارية والترقيات والتقدم، لكني من ناحية أخرى سأحصل على أكثر من ضعف مرتبى كموظف، وإذا رفضته عجزت عن تدبير احتياجات الأسرة والزواج فكان على أن أختار بين الدخل الكبير وبين المظهر الاجتماعي أو الوظيفة والمكتب وفرصة الترقي ذات يوم إلى منصب المدير، وفكرت طويلا ثم اتخذت قراري وقبلت بل وسعيت إلى وظيفة سائق الأتوبيس السياحي وشفعت لي ظروفي العائلية المعروفة لدى رؤسائى لفوزي بهذا العمل، وبدأت عملي الجديد غير نادم، وكررت المحاولة مع ورثة المستأجر متشفعا لديهم بكل الأقارب حتى قبلوا دفع نصف الثمن المستحق بعد عناء شديد واقترضت من الشركة كل ما أستطيع اقتراضه، وعجزت رغم ذلك عن ملاحقة طلبات شقيقتي الصغرى وخطيبها حتى كدت أفقد صبري أكثر من مرة وأعلنت عجزى واستسلامي.. ولم يخف حالي على أحد فبكت أمي وشقيقتا طويلا حين علمن بحكاية خروجى من كادر الوظيفة، وعرض على زوج شقيقتي الأولى إقراضي مبلغا مناسبا فاعتذرت في البداية ثم انهزمت أمام ظروفي وقبلت شاكرا وواعدا بتقسيطه، وأخيرا تم الزواج بمعجزة إلهية وتنفست الصعداء وأحسست أني قد أديت رسالتى وآن إلى أن أستريح، وفي حفل الزواج كان حديث الأسرة هو زواجي وترشيح من تستحقني لي.. ورغم تعبي الشديد وإرهاقى المادي والنفسي، فلقد كنت أحس بالرضا عن نفسي لأني قد أديت الرسالة. وبأني موضع حب شقيقاتى وأسرتي واحترامهم.

وبعد الزواج الأخير ظللت ثلاثة أعوام أسدد أقساط الديون ولم يزعجني شيء سوى إحساسي بأن زوج صغري الشقيقات ما زال منعزلا عنا ويعاملنا ببعض الترفع! ولم أتوقف كثيرا عند ذلك فلكل إنسان طريقته في الحياة وما دامت أختي سعيدة معه فلا مجال للاعتراض والتزمت دائما بحسن العلاقات معهم جميعا حرصا على صالح شقيقاتى.

وفي إحدى رحلات السياحية بالأتوبيس تعرفت بسيدة كانت مسافرة مع أمها وقدمت لها بعض الخدمات ووجدت نفسي ربما للمرة الأولى منذ سنوات طويلة مهتما بسيدة فكانت هذه الرحلة هي بداية تعرف بمن أحببتها ووجدت نفسي راغبا بصدق في الاقتران بها وبعد شهور فاتحت أمي برغبتي وعرضت عليها ظروف تلك السيدة كاملة وهي أنها مطلقة ولديها بنت في الإعدادية ورحبت أمي بكل ما يسعدني بغير مناقشة وكذلك فعلت شقيقتاى وزوجاهما.. أما زوج الصغرى فقد اعترض بشدة

وكأنه ولي أمري ولم يكتف بالاعتراض بل واجتذب زوجته إلى صفه، وتطوع بتجريح السيدة التي سأتزوجها بحجة أنه يعرف بالمصادفة أسرتها.. وطاف ببيوت أقاربي يشوه سمعة السيدة – التي اخترتها - وأمها.. وكان مما قاله عنها أنها مزواجة وليست فوق مستوى الشبهات! وأن أمها - سامحه الله - قد بدأت حياتها بتجارة المخدرات ثم تابت إلى الله واكتفت بتجارة الشنطة والمهربات! وعاتبته وأنا في شدة الألم وسألته لماذا يفعل ذلك وقد كان في مقدوره حتى لو كانت لديه تحفظات أن ينبهني إلى ما يريد بغير هذه الشوشرة.. ففوجئت به يجيبني بأنه فعل ذلك عامدا حتى يمنعني من الزواج منها ولكي أحس بالحرج إزاء شقيقاتي وأهلي!

أما لماذا يريد أن يمنعني بهذه الطريقة القاسية؟ فلأن زواجي منها سوف يسيء إلى مركزه الاجتماعي والعائلي حين تصبح هذه السيدة هي زوجة صهره! وأحسست بثورة هائلة تجتاحني.. وانفجرت فيه لأول مرة منذ عرفته مؤكدا له أنه لو كان قد أراد أن يمنعني من هذا الزواج حرصا على مصلحتي لربما قدرت له حسن نيته.. أما وهو لا يفكر إلا في نفسه حتى في أخص خصوصياتى... فلا وألف لا وغادرته هائجا.. وعدت إلى البيت وأنا أفكر فيها أفعل، وجمعت شقيقاتي وأمي ورويت لهن ما حدث فباركت أمي وشقيقتاى الزواج ولم أفاجأ كثيرا بموقف الصغرى ولم أقتنع بها قالته من حرصها على مصلحتي وذكرتها بأني وافقت على زوجها رغم تحفظاتي عليه لأني وجدت سعادتها في هذا الزواج بغض النظر عن مشاعري الشخصية، وسألتها لماذا لا تعامليني بالمثل وأنا شقيقك الأكبر وليس الأصغر ففوجئت بها تقول لى إن زوجها سيحرم عليها دخول بيتى إذا تزوجت هذه السيدة وإنها ستضطر لطاعته حرصا على طفلها! ولم أنس مرارة هذه اللحظة حتى الأن..

وانتهى الموقف عند هذا الحد وقررت أن أصرف النظر عن الارتباط بهذه السيدة بالرغم من رغبتي الشديدة فيها وحرجي أمام أسرتها، لكن زوج شقيقتي الأولى جاءني بعد أيام بما غير موقفي فقد أكد على أن كل ما قاله صهري المعتز بنفسه عنها غير صحيح وأنها تزوجت في العشرين من عمرها من والد طفلتها وعاشت معه ست سنوات انتهت بطلاقها وهجرة زوجها للخارج تاركا لها الطفلة.. وبعد أربعة أعوام من طلاقها تزوجت مرة ثانية ولم توفق مع زوجها الثاني لضيقه بطفلتها وبسبب بعض المشاكل العائلية وطلقت منه بعد عامين بغير إنجاب.. أما أمها فهي أرملة تاجر مات فتولت تصفية تجارته حتى انتهت ثم عاشت على إيراد بعض أملاكه المحدودة أما لماذا حارب زوج شقيقتي هذا الزواج بضراوة.. فلأن زوجها الثاني كان للمفاجأة هو شقيقه الأكبر المتزوج الذي تعرف عليها وطاردها حتى تزوجها وتسبب زواجه منها في مشاكل عائلية كبيرة إلى أن انتهى بالطلاق! وكان بطل هذه المشاكل هو زوج شقيقتي الذي اشتبك معها اشتباكات حادة ونال منها ما ساءه ووصلت الأمور إلى حد أن شكته للشرطة من أنه يتعرض لها بالإيذاء ووقفت مذهولا أسمع هذه المعلومات العجيبة.. وتعجبت لهذه المصادفة التي جعلت قلبي لا يخفق لأحد طوال هذه السنين إلا لهذه السيدة، وتذكرت أن هذا هو نفس ما روته لي ما عدا اسمي زوجيها اللذين لم أتوقف عندهما لأنها لا يعنيان لي شيئا. وحزمت أمرى وقررت ألا أحرم نفسي من نصيبي من الحياة بل ومن حق البحث

عن السعادة مع أول إنسانة أحس برغبتي فيها وسعدت أمي وشقيقتاي وأهلي جميعا بقرارى.. فهل تعرف ماذا فعل زوج شقيقتي ردا على ذلك؟ لقد أعلن على رؤوس الأشهاد أنه سيطلق أختي إذا تزوجت هذه السيدة!.. واستشرت أهل الرأي فنصحوني بعدم الالتفات إلى كلامه وحددنا موعد قراءة الفاتحة فإذا به يأبي علىّ أن أحس بأول لمحة سعادة شخصية في حياتي ويأتي إلى البيت صباح اليوم المحدد وبدلا من أن يحضر معه تورتة أو زجاجة شربات أحضر معه زوجته وطفله البالغ من العمر أربع سنوات وطفلته التي لم تكمل عامين ويعلن أنه سيترك الجميع عندي إلى أن أفيق من غيبوبتي وأرجع عن هذا الزواج. أما في اليوم الذي سأعقد فيه قرانى على هذه السيدة.. فسيرسل لأختي ورقة طلاقها ليتخلص من «العار».. ولتدفع هي ثمن عنادى! وقرأت الفاتحة على خطيبتي وفي نفسي غصة مما فعل زوج شقيقتي. ولقد استاء الجميع من تصرفاته..

وباحت لي أختي بمعاناتها معه وبأنها فعلت كل ما تستطيع لكى تعيش معه في سلام لكنه لا يريد أن يحيا في سلام مع أحد.. وحثني الجميع على أن أمضي في طريقي إلى ما أريد لكن منظر الطفلين البريئين وهما يلعبان في بيتى يمزق قلبي. وكل يوم يمر يضعف من مقاومتى وأكاد أحس في نظرات أختي أنها تنتظر مني أن أضحى هذه المرة أيضا لإنقاذ أسرتها.. نعم إنني لن أموت إذا لم أتزوج هذه السيدة.. لكن أليس من حقى يا سيدى أن أختار حياتى وقد شارفت الأربعين.. وهل توافق على هذه الطريقة التي اتبعها معي زوج شقيقتي لمنعي من الزواج؟ وهل ترى أن أختار سعادتى كما ينصحني كثيرون ولو أدى ذلك إلى طلاق شقيقتى خاصة وأنت تنصح دائما بالتضحية من أجل الأطفال!

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

أعرف يا سيدي أن الحياة لن تتوقف عند هذه السيدة بالذات أو غيرها من النساء لكني أعرف أيضا أنه ليس من حق أحد أن يختار لآخر حياته بلوى الذراع، وبالضغط على الجرح النازف في يده لكي يؤلمه وليس ليمنع النزيف. نعم إنني أطالب عادة بالتضحية من أجل سعادة الأطفال.. وسأطالب بها هذه المرة أيضا.. ولكن من ينبغي أن نطلب منه هذه التضحية إن كان ثمة ضرورة لها؟ ... من الأب الذي ينبغي ألا يرهن سعادة أطفاله وأسرته ومستقبلها بأية ظروف أو أسباب لا علاقة لهم بها.. أم من الصهر الذي لم يظلم أحدا باختياره لسعادته والذي قام بدور الأب لشقيقاته خير قيام وكانت حياته سلسلة متصلة من الرجولة والالتزام بالواجب العائلي والكفاح؟

لا يا صديقي إن لكل شيء حدودا ينبغي عدم تجاوزها، وحدود الأقارب في مثل هذه الأمور هو إبداء الرأي المجرد من الهوى والنصيحة والمشورة طلبا لصالح الأسرة، ولكل إنسان بعد ذلك أن يختار لنفسه ما يراه مناسبًا، ومن حق الآخرين أن يقبلوا هذا الاختيار.. أو يرفضوه، فإذا رفضوه لم يكن لهم إزاءه إلا الاحتجاج السلبي

عليه بعدم المشاركة فيه.. أو بالانعزال عنه أما ما عدا ذلك فهو رغبة في التسلط وقهر الإرادة الخاصة لصالح اعتبارات لا تخص صاحب الشأن غالبا..

إنني لا أناقش هنا ملاءمة هذا الاختيار لظروفك أو عدم ملاءمته، فهذا أمر لا يحسمه سواك، وأنت رجل ناضج ولست فتى غريرا أو قليل الخبرة بالحياة، لكني أناقش فقط هذا الأسلوب العجيب في التدخل في حياة الآخرين ومحاولة إجبارهم على ما لا يريدون بهذه الطريقة غير الإنسانية ومن الواضح أن صهرك هذا من نماذج هؤلاء الأشخاص الذين لا تخلو منهم حياة والذين يتصورون أن ما يريدونه هم وفقا لاعتباراتهم الخاصة ينبغي أن يكون هدفا قوميا.. لكل المحيطين بهم بغض النظر عن رغباتهم وأهدافهم الخاصة، وهؤلاء في العادة لا يؤثر فيهم ما يراعيه الآخرون من اعتبارات عائلية في التعامل معهم وإنما يسيئون للأسف فهم هذا الحرص العائلي على صالح الابنة المتزوجة أو الشقيقة المتزوجة ويعطون لأنفسهم الحق في إملاء الرغبات مطمئنين إلى أن حرص الآخرين على سعادة «أعزائهم الرهائن» لديهم سوف يدفعهم للاستجابة لهم.. ولست في الحقيقة من أنصار المبالغة في التنازل عن الحقوق طلبا لسلام الأعزاء مع الأزواج أو الزوجات لأن هؤلاء ينبغي أن يكونوا حريصين على شركاء حياتهم بغير الاستعانة «برشاوى» عاطفية أو إنسانية من الأهل لهم... كما أني بكل تأكيد من أنصار أن يكون الحرص متبادلا بين كل الأطراف وأنصار الاحتكام إلى العدل وحده في كل المطالب..

لهذا فإني أنصحك بعدم الاستجابة لهذا الضغط الحقير وهذا الحجر غير الكريم على حرية رجل ناضج وفاضل مثلك فاختر لنفسك يا صديقي ما تراه محققا لسعادتك غير ملوم لكن لا تصعد الخلافات مع هذا الصهر لأكثر من هذا الحد فإن أفاق من غيه.. واستبان له عدم إنصافه، واسترد زوجته وطفليه فما فعل في هذه الحالة سوى أن أنصف نفسه وأسرته وطفليه وأنقذهما من التمزق. أما إذا أمعن في عناده وتجبره فما ظلم في النهاية سوى نفسه وأسرته وما أظنه سيعرف طعم السعادة ذات يوم بعيدا عنهم بل وما أظن أن حياتهم كانت ستمضي في سلام معا حتى النهاية إذا كان هذا حقا هو منطقه وتفكيره ونظرته للحياة والبشر!.. والسلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طائر الوهم

انا رجل في أوائل الخمسينات من عمري تزوجت منذ سنوات من إحدى قريباتى بعد حب طاهر عفيف جمع بيننا وتحدثت فيه العيون بأكثر مما تحدث اللسان. وبدأت حياتي الزوجية معها فسعدت بكل لحظة عشتها بقربها فهي سيدة هادئة رقيقة كالنسمة تتدفق حنانا وعطاء للناس، أحبتني بصدق وأحبت قبلى الحياة والبشر وكل الكائنات الحية حتى لأحسبها لم تعرف الكراهية لشيء أو لإنسان طوال حياتها. وكان أقاربي أو أصدقائي يزورونني فتسخر نفسها لخدمتهم وتمضي الساعات واقفة على قدميها في المطبخ تعد لهم الطعام بحماس وسعادة وتقف على رأس المائدة تحثهم على تناوله بلطف ورجاء وتلبى طلباتهم قبل أن ينطقوا بها.. وتذهب وتجيء بلا هوادة طوال الوقت حتى ليشفق عليها الضيوف ويدعونها للجلوس والراحة.. فلا تستريح إلا إذا أشعرتهم أنهم أسعدوها وأسعدوني بزيارتهم.. وتفعل ذلك بصدق وتلقائية منذ رأيتها في بيت أسرتها تتصرف بنفس الطريقة ومضت السنوات سعيدة ودافئة بالحب والعطاء والأحاسيس الطيبة الجميلة تهتم بي وبشئوني وتحرص على جمال بيتها وهدوئه ونظافته فاطمأن بها جانبى وتفرغت لعملي في إحدى الهيئات الحكومية وحققت فيه نجاحي واستبشرت خيرا بالمستقبل ثم شكت زوجتي ذات يوم بعض الأعراض وتحاملت على نفسها فلم تخبرني بها وأملت أن تكون عابرة بسبب الإجهاد في أعمال البيت. لكن الأعراض عاودتها مرة أخرى وصارحتني بها فعرضتها على أحد الأطباء. فلم يفلح علاجه معها ثم عرضتها على آخر فطلب إجراء بعض الفحوص الضرورية وأجريناها، فإذا بها تكشف عن إصابتها بالمرض الخطير. وواجهت زوجتي الموقف بشجاعة كبيرة وواجهته أنا بواقعية ورجاء في الله تعالى أن تصمد لهذا المرض وتنجو منه. وبعد مراحل جراحة كبيرة لها وتمت بنجاح. وبعدها بدأ العلاج المعروف وتكررت الفحوص والتحليلات والاختبارات وزيارات الأطباء والمراكز المتخصصة ووجدت عملي يعوقني عن التفرغ لرعايتها ومصاحبتها في مراحل العلاج المتعددة فحصلت على أجازة بدون مرتب وتفرغت تماما لشريكة حياتي الطيبة المحبة للناس وللحياة ولم يعد لي عمل ولا هدف سوى رعايتها وعلاجها ومساعدتها على الشفاء.. ومؤازرتها في شدتها والتخفيف عنها. بل والاستمتاع بقربها في كل لحظة من لحظات اليوم كأنها أتزود منها بشحنات عاطفية وإنسانية إضافية أواجه بها احتمالات المستقبل الغامض..

ومهما وصفت لك يا سيدي فلن أستطيع أن أعبر لك عن إحساسى بها وإحساسها بي في هذه الأيام وطائر الخوف من الفراق يخيم فوق رؤوسنا، فلقد ازداد ارتباطنا العاطفي حتى لم أعد أحس أنها إنسان آخر منفصل عني وازداد أيضا استمتاع كل منا بقرب الآخر رغم الألم القاسي والمعاناة. وازداد استمتاعنا بكل همسة أو لحظة نتبادل فيها الحديث عن أي شيء في الحياة... وأصبح حبل الحديث لا ينقطع بيننا ليلا ونهارا.

وفي هذه الفترة بالذات حملت زوجتي... فثار جدل كبير بين أفراد الأسرة حول هذا الحمل... هل الحكمة في أن تحتفظ به أو تتخلص منه للأسباب المعروفة وشغل

الأهل والأقارب بهذه الحكاية وأجمعت آراؤهم على ضرورة التخلص منه لكن زوجتي حسمت الجدال بقرارها أن تحتفظ بحملها.. لأنها كما قالت لي تريد أن ترى طفلها مني قبل أن تؤذن السفينة بالرحيل وأيدتها في قرارها باقتناع تام بل وبسعادة بها وبقرارها وجادلني الأصدقاء والأهل في هذا القرار وسألني أحدهم بإشفاق وحرج شديدين: ماذا سيكون مصير الطفل القادم من عالم الغيب إذا؟ فأجبته بهدوء بأن الأعمار بيد الله وأن الحقائق ليست غائبة عني لكني سعيد بحمل زوجتي وبرغبتها في الإنجاب منى.. وأريد أن أحتفظ منها بطفل يربطني بها طوال العمر فصمت الصديق متأثرا. وتوقف الجدال حول هذا الأمر.. واستكمل جنين زوجتى نموه وأذن الله له بالخروج إلى دنيا الأحياء فكانت طفلة جميلة فرحت بها زوجتى فرحة طاغية واختلطت ضحكات السعادة بدموع الإشفاق في عيون الأهل وهم يستقبلونها مرحبين وسعدت أنا بها سعادة صافية من كل شائبة رغم الظروف الأليمة.

وبعد مولدها بشهور بدأت حالة زوجتي الصحية في التدهور بسرعة غريبة ولم يكن لدى سيارة فاستأجرت سيارة أجرة بسائقها ليتفرغ لتنقلاتى بها بين المستشفيات والمراكز المتخصصة.. ثم جاء الأجل المحتوم.. ولقيت وجه ربها راضية مرضية بعد عام من ميلاد طفلتها فودعتها بما يليق بها وبعد رحيلها احتضنت أختي الأرملة التي لم تنجب أولادا طفلتي وضمتها إليها في بيت الأسرة الكبير الذي نعيش فيه جميعا مع إخوتنا كل في شقته. وعشت أنا وحيدا مع ذكريات زوجتي الراحلة واحتفظت بكل شيء في مسكنى كما تركته فملابسها في دولاب غرفة النوم وشبشبها بجوار السرير كأنه ينتظرها. والأثاث كما نسقته ورتبته خلال حياتها القصيرة معي، وواجهت حياتى بواقعية وشجاعة، واستقلت من عمل الحكومي ومارست عملا حرا وشغلت أوقاتى بالعمل وصرفت النظر نهائيا عن التفكير في الزواج أو في أن تحل أخرى محل زوجتي الراحلة. وكرست شقيقتي حياتها لرعاية طفلتي وغمرتها بحبها وحنانها فنشأت وهي لا تعرف لها أما غيرها، وحين نطقت بكلمة ماما.. وأنا بابا.. وساعد الإخوة وأبناؤهم الذين يعيشون معنا في نفس البيت على ترسيخ هذه الفكرة لديها، فمضت في حياتها هانئة بين «أبوين» تعيش معهم يحبانها ويغمرانها بالعطف والرعاية كباقي الأطفال وبلغت طفلتي سن الثامنة وهي في أمان من أي خواطر مثيرة للقلق أو الخوف. وكان من الممكن أن تستمتع ابنتى بسنوات أخرى من السلام النفسي.. لولا أن إحدى مدرساتها سامحها الله صدمتها بلا أي مناسبة بأن أمها الحقيقية قد ماتت بعد مولدها بسنة وأن من تناديها بماما هي عمتها وليست أمها! ولست أعرف لماذا تطوعت لإيلامها بذلك بلا ضرورة. فعادت الطفلة من المدرسة شبه مريضة وأمضت ثلاثة أيام صامتة لا تشير إلى ما سمعت ونحن لا نعرف شيئا، وفي اليوم الرابع سألتني فجأة عن الحقيقة فذهلت.. وارتج على الأمر ولم أعرف بماذا أجيبها.. فراوغتها ثم نفيت لها ما سمعت ولست أعرف لماذا فعلت ذلك.. ولا إذا كان هذا هو التصرف الصائب أم لا.. لكني لم أحتمل حزنها البريء وهي تسألني عن ذلك فوجدت نفسي أندفع لإبعاد هذا الحزن عن قلبها الصغير وأكدت لها أنها ككل أبناء وبنات عمومتها الذين لها أما طبيعية وأبا... واطمأنت الطفلة قليلا وبدأت تستعيد مرحها وطبيعتها.. لكنها بدأت بعد ذلك تلاحظ

أشياء لم تكن تستوقفها من قبل وتسأل عنها مثل.. لماذا لا تنام ماما مع بابا في غرفة نوم واحدة؟ أو لماذا لا يخرج بابا مع ماما وذراعاهما متشابكان وهي معها إلى السينما أو إلى الحديقة كما تفعل فلانة وفلان إلخ.. أو من هذه السيدة التي ترتدي فستانا أبيض وتقف بجوار بابا في الصورة المعلقة في غرفة النوم.. أو في الصور الكثيرة المنتشرة في البيت؟ إلخ.

وبدأت أحس بالقلق واكتأبت خوفا عليها.. فبماذا تنصحنى يا سيدى.. هل تنصحني بمصارحتها بكل الحقيقة مع ما سوف يترتب على ذلك من إيلام نفسي لها وربما من تغير في معاملتها لعمتها التي تفرغ فيها كل حنينها للأمومة وترعاها بأفضل مما ترعى بعض الأمهات أطفالهن؟.. أم تنصحني باستمرار إيهامها بأن عمتها هي أمها إلى أن تكبر وتعرف الحقيقة في الوقت المناسب؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

في مثل هذه الظروف المأساوية التي أحاطت بنشأة طفلتك وفرضت عليكم إيهامها بأن عمتها هي أمها، كنت أفضل أن تتأخر مكاشفتها بضع سنوات أخرى تزداد خلالها قدرة على فهم حقائق الحياة الأليمة لكن مدرستها الفاضلة لم تدع لأحد مجالا للاختيار فلقد تعجلت الأمور وبذرت بذرة الشك والألم في نفسها وأثقلت عقلها وقلبها الصغيرين بالتفكير في حقائق كبرى لم تكن مؤهلة للتعامل معها في هذه المرحلة من العمر، ومع أن طفلتك كان لابد أن تعرف كل شيء ذات يوم فإن سوء اختيار الوقت الذي تتعرف فيه على الحقائق وسوء اختيار الوسيلة أيضا يمكن أن يثمرا آثارا نفسية ضارة تنعكس على شخصيتها سلبيا في المستقبل. السن الملائمة في تقديري للتعامل مع حقيقة الموت الأزلية هي ما بعد سن الحادية عشرة أو الثانية عشرة أما الوسيلة المثلى... فهى تسريب الحقيقة إلى الطفل بجرعات متدرجة تهيئة نفسيا للتسليم بالحقيقة والتعايش معها. وكل ذلك لم يتوافر لطفلتك للأسف.. ولا مفر إذن من تدارك الآثار السلبية لمصارحتها بالواقع بغير تدرج بالبدء من الآن في تسريب الحقيقة إليها تدريجيا. والبداية المثلى في مثل حالتها هي البدء في الحديث أمامها عن أطفال تعساء حرموا من الأم لأن الله قد اختارها إلى جواره في السماء.. ثم بالحديث عن أطفال آخرين حرموا من الأم لكن رحمة الله تداركتهم فهيأ لهم أمهات بديلات قمن باحتضانهم ورعايتهم كأفضل ما تفعل أي أم حقيقية، وكيف أن هؤلاء الأطفال قد أحبوا أمهاتهم البديلات وشكروا الله كثيرا على ترفقه بهم وإهدائهم هؤلاء الأمهات الرحيمات.. وهكذا تدريجيا إلى أن يتهيأ عقل الطفلة لتخيل أن تكون هي نفسها واحدة من هؤلاء الأطفال..

يعرف بأسلوب «المحاكاة» أي تمثيل المعنى المراد إيصاله إلى الآخرين وهو أسلوب مفيد في بعض الحالات وينصح به علماء النفس.. بل إن بعضهم ينصحون أيضا بالاستعانة فيه بتدبير مشاهدة الطفل لفيلم أو أفلام تحكي عن أم راحلة وأطفال حرموا من الأمهات لزيادة تهيئتهم نفسيا وعقليا لقبول الواقع والتسليم به.

ونصيحتي لك هو أن تعتمد أسلوب المحاكاة هذا مع ابنتك لأن بذرة الشك قد أفسدت عليها سلامها، ولن تكف عن التفكير فيما تراه من اختلاف في حياة أبويها عن حياة الآباء والأمهات الآخرين.. ولن تكف عن التساؤل عنه كما أنه ليس من المفيد تربويًا أن تتهم مدرستها التي تتلقى عنها حقائق العلم وتصدق كل ما تنطق به بالكذب فيهتز مثلها الأعلى في خيالها وتفقد الثقة في أشياء كثيرة في حين أن نفيك لما قالته المدرسة يمكن تبريره أمامها بإشفاقك عليها من أن تحزن لمعرفة الحقيقة وهو عذر مقبول لن يؤثر على مثلها الأعلى فيك ويستطيع حنان الأب وعاطفته ورعايته لطفله أن يتجاوز مثل هذه المحنة بسهولة أما مشاعر طفلتك تجاه عمتها أو أمها في الحقيقة.. فلن تتغير تجاهها إذ ماذا تعني الأمومة أكثر مما تفعله شقيقتك مع طفلتها لأن الأطفال ينجذبون تلقائيا تجاه من يغمرهم بالحنان والحب والعطف الصادق وهي في النهاية لم تعرف لها أما غيرها وسوف يزداد تقديرها لها مع تدرجها في الحياة وإدراكها للدور الهام الذي لعبته في حياتها.. وسوف تتربع على عرش قلبها إلى جوار أمها الحقيقية التي تطل عليها من صورها إن شاء الله..

فلا تنزعج كثيرا يا سيدى فلسوف يحفظ الله ابنتك من كل سوء ويهيئ لها من أمرها رشدا كما هيأ لها من قبل هذه الأم الرؤوم التي عوضتها حرمانها من أمها ولسوف يعوضك الله خيرا كثيرا في ابنتك وفي حياتك جزاء وفاقا لوفائك وإخلاصك ونبلك والله خير حافظا. وشكرا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضوء الشعلة

أكتب إليك قصتي هذه لعلى أشد بها أزر بعض من تضيق بهم الحياة في بعض الأحيان، فأنا يا سيدي شاب في الثامنة والعشرين من عمري وقد توفي والدي منذ ثمان سنوات وكان تاجرا معروفا بالإسكندرية وتركنا وأنا طالب بالسنة الثانية بكلية الطب وشقيقتي الوحيدة في الثانية عشرة من عمرها ووالدتي الحاجة الوقورة خريجة المدرسة النسوية الثانوية والتي تعلمت في مدرسة ابتدائية فرنسية.. في السادسة والأربعين من عمرها وكنا حين توفي أبي نعيش حياة مريحة ونقيم في فيللا قديمة تفوح من مبناها القديم رائحة الأصالة والعز القديم ونشغل دوريها ونعتز بحديقتها المتهالكة.. وعقب وفاة أبي اكتشفنا أنه غارق في الديون وكانت صدمة مذهلة، وأنه توفي بأزمة قلبية حادة داهمته بعد أن خسر معظم ما بقي من ثروته في آخر صفقة عقدها وكان يعقد عليها الآمال في تسديد بعض ديونه وتعويم تجارته الغارقة.

ولم يكن أمامنا مجال للبكاء على الأطلال وواجهنا الواقع المؤلم دفعة واحدة وأخلينا الدور الثاني من البيت وأجرناه، واكتفينا نحن بالدور الأرضي والحديقة الصغيرة الأثرية وبعنا السيارة وبعض ما تبقى من أشياء عينية لتسديد جزء من الديون وواجهت أنا الاختيار الصعب بين الاستمرار في دراسة الطب التي تحتاج لنفقات كثيرة لم تعد في مقدورنا وبين الخروج للعمل ومواجهة مطالب الحياة ومطالب أسرتي، ولم أتردد طويلا رغم قسوة القرار وتخليت عن دراسة الطب وحلم العيادة والمركز العلمي والأدبي.. وعملت بإحدى شركات الأتوبيس السياحي التي تعمل بين القاهرة والاسكندرية وقررت أن التحق بإحدى الكليات النظرية منتسبا فلا أستطيع الجمع بين الدراسة والعمل.. وصدمت مرة أخرى حين علمت أن أقسام الانتساب بالكليات النظرية لا تقبل سوى طلبة القسم الأدبي. فقررت أن أعيد الحصول على الثانوية العامة من القسم الأدبي. وكنت قبل وفاة أبي قد خطبت زميلة لى بكلية الطب وارتبطت بها عاطفيا ففوجئت بها بعد اضطرارى لترك الدراسة واكتشافها أني لم أعد ذلك الطالب الذي يركب سيارة خاصة وتنتظره العيادة المجهزة بعد التخرج تطلب مني في برود عجيب وبدعوى أننا يجب أن نكون « واقعيين » أن أحلها من الارتباط بى واستجبت لطلبها مذهولا ومتعجبا وتمت خطبتها بسلام لزميل آخر بنفس الكلية بعد فترة قصيرة وفقدت الثقة في كل الفتيات وأصبحت حين أقرأ رسالة في بريدك يمتدح فيها إنسان خطيبته أو زوجته التي ضحت بالمال من أجله أقول إن مثل هذه الفتاة لا وجود لها.

ثم واجهت أنا حياتي الجديدة بواقعية لا مفر منها وواجهتها معي أمي العظيمة بشجاعة وتناست سريعة أيام العز القديم واسترجعت ما تعلمته في المدرسة النسوية القديمة وراحت تقوم بالخياطة وصنع الجاتوه والتورتة بالثمن لبعض المعارف في مناسباتهم الخاصة.. ولا ترى في ذلك بأسا بل فخرا لها ولنا لأننا نكافح في الحياة بشرف لتسديد ديوننا ولمواصلة الرحلة. ورحت أنا أعمل بإخلاص في عملي الجديد وأعيد استذكار دروس الثانوية العامة للقسم الأدبي. ونسدد أنا وأمى بما نكسبه جزء

من ديوننا وننفق الباقي على حياتنا وبالذات على مظهر شقيقتي التي تعودت على مستوى معين من الحياة.. ولم أطق حرمانها من شيء تعودته وهي التي حرمت من أبيها في سن الطفولة وكانت ابنته المدللة قبل رحيله يرحمه الله،،

وكلما فاجأني شريط حياتي السابقة وأنا أستذكر دروس الثانوية العامة.. وتذكرت الخذلان الذي طعنتني به خطيبتي.. وتغير الأحوال طردت هذه الهواجس من مخيلتي سريعة وقلت لنفسي لسنا أول من غدرت بهم الدنيا ولن نكون آخرهم وواصلت الاستذكار والعمل بجد حتى حصلت على الثانوية العامة وانتسبت لقسم الفلسفة بكلية الآداب وأكرمنى ربى فغرس في نفسي حب هذه الدراسة وأصبحت أحصل على تقدير جيد جدا كل سنة ويأتي ترتيبي الأول بالرغم من أني لا أذهب إلى الكلية إلا نادرا.. وكنت حين أذهب إليها أرى زملائي ينعمون بجو الزمالة والصداقة والرحلات واسف لأني لا أستطيع مشاركتهم كل ذلك لأننى مشغول بعملي. وفي ديسمبر الماضي كنت أقوم بعملي في الأتوبيس السياحي الفاخر وأمر بين الركاب لأتأكد من حصولهم جميعا على التذاكر، ففوجئت بإحدى الراكبات تقول لي ألهذا لا نراك في الكلية إلا مرة واحدة في السنة.. مع أنك أول الدفعة ويثنى عليك الأساتذة؟ فتوقفت أمامها مرتبكا. وأدركت على الفور أنها إحدى زميلاتي وإن كنت لا أعرفها وتبادلت بعض كلمات المجاملة وغادرتها لأطوف بباقي الركاب وهي تنظر إلى باحترام.

وبعد حوالى شهر من هذا اللقاء ذهبت إلى الكلية لأقدم بحثا مطلوبا قبل موعد أجازة نصف السنة.. فصادفت هذه الزميلة هناك وألقيت عليها التحية وانصرفت لحال سبيلى ففوجئت بها تلحق بي وتقول لى إنها مستعدة لأي شيء أطلبه منها بخصوص الدراسة ومستعدة لإعطائي المذكرات أو تصويرها لي. وشكرتها كثيرة وتعددت لقاءاتي بها وعرفت أنها ابنة لأستاذ جامعي محترم وتولتها الدهشة حين حدثتها عن ظروفي السابقة وكيف أني طالب طب سابق ومن أسرة طيبة رغم سوء الأحوال ولعلها تشككت في صدقى وتصورتني أتجمل أمامها. ثم عرفتني بأبيها الأستاذ الجامعي فأعجبت كثيرا بشخصيته فقد شجعني على مواصلة الكفاح ورفع من قدرى ولم يشعرني بأى نقص وأصر على أن يوصلني بسيارته مع ابنته إلى البيت. وبعد عدة لقاءات أخرى اتفقت معها على أن أتقدم لخطبتها وشجعتني على ذلك مؤكدة تأييد والدها لى، لأنه يحترم الإنسان المكافح ويهتم بالخلق وبالأصل الطيب أكثر من أي شيء آخر.. وتقدمت إليه وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى فرحب بي كثيرا واشتبك معي في مناقشات سياسية وفلسفية وحول الأمور العامة وأصبحنا كلما التقينا نتحدث في هذه الأمور ويزداد إعجابي به.

وتحدثت مع أمي عن فتاتي كثيرا فطلبت أن تراها ودعوتها مع أسرتها وقبلت الأسرة الدعوة وجاءت فقدمت لها أمي تورتة جميلة وجاتوها من صنع يدها مع الشاي. وراح صديقي الكبير الأستاذ الجامعي يتلفت حوله ليرى المكتبة ويتصفح كتب الطب القديمة التي مازلت أحتفظ بها تذكارا لما كان من أمري. وجاءت شقيقتي الوحيدة التي أصبحت الآن طالبة بكلية الفنون الجميلة بلوحاتها ليتفرجوا على أعمالها الفنية وسعدنا جميعا بجو عائلي جميل يسوده التفاؤل والحب واحترام

الإنسان للإنسان بغض النظر عن إمكاناته. وخطبت هذه الفتاة الرقيقة التي أصرت على ألا أقدم لها أكثر من خاتم الخطبة فقط وعرفت في هذه اللحظة فقط الحكمة الإلهية وراء تركى لكلية الطب والتحاقى بتلك الكلية النظرية، لكي يظهر لي الله حقيقة معدن خطيبتي الأولى التي تخلت عنى بغير أن بطرف لها رمش حين تغيرت ظروفي.. ولكي يجمع الله بيني وبين هذه الفتاة الأصيلة الرائعة خلقا وخلقة.. والتي لم أكن أعرفها لو لم أتعرض لهذه المحنة.. واستعدت ثقتي في أشياء كثيرة في الحياة.. وفي الفتيات وبدأت أصدق ما يكتبه القراء عن تضحيات فتياتهم واختيارهن للحب الصادق الشريف بديلا عن عرض الدنيا التي لا تستقر على حال..

وأضاءت داخلي مرة أخرى شعلة الأمل التي كانت قد انطفأت وفهمت مغزى الآية الكريمة التي تقول «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» وأرجو أن يرددها معي من تضيق حوله حلقات الهموم في بعض المواقف وأن ينتظر فرج ربه بصبر وإيمان كما انتظرته وجاء ليشفي نفسى مما أصابها والسلام عليكم ورحمة الله.

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

منطق أهل الغدر حين يخذلون من أحبهم ويتخلون عنه في محنته بدعوى النظرة الواقعية للأمور هو نفس منطق الأم القاتلة في مسرحية «سوء تفاهم» لألبير كامى حين بررت جرائمها بقولها «إن الحياة أقسى منا!» فكان عقابها الإلهي هو أن قتلت ابنها الشاب العائد إليها من هجرته الطويلة ليريحها من عناء العمل قبل أن تعرف أنه ابنها المهاجر منذ زمن طويل!

أما منطق الأصلاء والمترفعين عن الدنايا فهو منطق الشاعر الذي يعرف جيدا:

إنها الدنيا هبات وعوار مستردة

شدة بعد رخاء ورخاء بعد شدة

وهم الذين يعرفون أنه لا يغير من قدر الإنسان أن تتغير بعض ظروفه لأسباب طارئة أو لا حيلة له فيها.. وإنما يعيبه فقط كل ما يمس شرفه من خلق مستنكر أو تصرف لا يليق به. فإذا كنا نشقى أحيانا بغدر الغادرين.. فإنها يعزينا عنه فهم الأصلاء لحقائق. الحياة.. وتقييمهم العادل لمعادن البشر بعيدة عن الأسباب الزائلة التي لا دوام لها وفي الصبر دائها يا صديقى «حيلة المحتال، كما يقول شاعر آخر وفي فهم الضعف البشري والإشفاق على أصحابه من انحطاط تفكيرهم ما يهون على الجرحى بعض جراحهم ويقربهم بالكفاح الشريف والتمسك بالقيم من بلوغ الآمال وتعويض الخسائر.. وإدراك الجوهر المكنون للشدائد التي قد تندرج تحت مفهوم الألطاف الخفية.. وهي ذلك التدبير الإلهي الذي قد يحمل إلينا أحيانا بعض ما نكره لكي يأتينا فيما بعد بأطيب ما نحب إذا رضينا بها كرهناه وواصلنا طريقنا في الحياة بصبر وأمل وبغير أن نتعجل كشف الأسرار.

وقصتك يا صديقي تقول كل ذلك وأكثر.. فلعلك قد عرفت الآن أنه ليست كل الفتيات كفتاتك الأولى.. وان من البشر من لا يتخفى وراء ستار - «الواقعية» المزيفة لتبرير غدره وصغار نفسه بدليل فتاتك الأصيلة التي أحبتك واحترمتك قبل أن تعرف شيئا عن حياتك السابقة وبدليل هذا الأستاذ الجامعي العظيم الذي رأى فيك إنسانا جديرا بالثقة والاحترام والفخر بغض النظر عن إمكاناتك المادية..

فهنيئا لك سعادتك وفتاتك وصهرك وأسرتك الشريفة التي يجمعها الحب والتعاطف وتغبطها على دفء روابطها العائلية أسر أخرى لم تُحرم من المال بقدر ما حرمت مما لا يشتريه المال وحده وإن كثر.. من الحب والتراحم والتساند في وجه تقلبات الحياة.

أما والدتك العظيمة فتقديرى لها بلا حدود وأرجو أن تستعد الآن لتورتة الفرح الكبيرة بفنها العظيم وروحها الطيبة الودود التي تجمل الحياة وتخفف من آلامها.. وشكرا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حساب الأيام

نشأت ابنة وحيدة لأبوين وتفتحت عيناي للحياة على شجار دائم بينهما لسبب لا أعرفه بالضبط.. ورغم صغر سنى فلقد بدأت أرجح وأنا طفلة أن أمي هي دائما سبب هذا الشجار لأنها تختلق المشاكل لأتفه الأسباب. وحين شببت عن الطوق قليلا تفاقمت الخلافات بينهما وانتهت إلى الطلاق ولم يضمنى أبي إليه وتركني لها ثم لم يلبث أن تزوج من أخرى..

وتأكد يقيني بأن أمي هي سبب هذا الشقاق لأنها تخطت بعد الانفصال كل الحدود ولا أعرف كيف أصف لك ما حدث بغير أن أسيء إليها لكنه يكفي أن أقول لك إنها تزوجت زواجا يخالف الشرع والدين وألقت بكل شيء وراءها وعاشت كما لو كانت وثنية في عصر ما قبل نزول الرسالات السماوية..

ورغم هذا الانحدار البشع فلقد أبعدتني نهائيا عن خطاياها واهتمت بتربيتى وتعليمي إلى أن وصلت إلى أعلى مراتب العلم. وخلال ذلك كانت تقوم بكل شئوني بنفسها من طعام وشراب وملبس ومتابعة لسير تعليمى وتقوم بتوصيلي للمدرسة وإعادتي منها كل يوم في كل مراحل دراستي. لكنها تفعل ذلك بحزم وصرامة وشدة بالغة.. لهذا كرهتها لشدتها معي في حين أحببت أبي الذي لم أكن ألتقى به إلا على فترات متباعدة فيكون لقاؤه لى بالأحضان والقبلات والكلمات الحانية الرقيقة ثم يصطحبني إلى دور السينما والمسارح والمطاعم. ولرقته معي وحنانه بى كنت أسأل أمى دائها هذا السؤال: لماذا انفصلت عن أبي وحرمتينى منه؟ ثم أؤكد لها أني على يقين من أنها سبب هذا الانفصال فتجيبنى دائما بإجابة واحدة لا تتغير هي أن الزوجين طائران في قفص لا يستطيع أحد أن يعرف من منهما الظالم ومن منهما المظلوم!

ولم أقتنع أبدا بهذه الإجابة وواصلت حياتى الجادة والتزمت بالسلوك القويم وبالطهارة التامة في كل تصرفاتي مما دفع كل من عرفنا للإشادة بأخلاقياتي ومثلي وسعي رجل فاضل له مركزه المحترم للزواج منى وزوجتني أمي له وجهزتنى بجهاز مناسب.

وبعد زواجي بفترة قصيرة فاجأتني أمي بتحول هام في حياتها هي أنها قد تخلصت من ذلك الزواج غير المشروع وانهته وابتعدت عن شريكها فيه نهائيا وسافرت لأداء العمرة وعادت من هناك إنسانة أخرى فنبذت كل ما كان في حياتها من خطايا واعتكفت في بيتها لا تغادره ثم أدت بعد ذلك فريضة الحج والعمرة أكثر من مرة، وفي كل مرة كانت تعود للاعتكاف في شقتها لا تبارحها بالشهور الطويلة وقد واظبت على الصلاة والصوم وقراءة القرآن وإخراج الزكاة وأصبحت تعيد قراءة المصحف كاملا مرات ومرات.. وتقنع بوحدتها عن كل شيء آخر..

والمشكلة التي أكتب لك بشأنها هي أنني رغم أن أمي قد نبذت كل ما كانت فيه ولم يعد في حياتها شيء الآن سوى العبادة إلا أني مازلت أكرهها وأكرر عليها سؤالي الأبدي عن سبب انفصالها عن أبي وتعيد على إجاباتها التي لا أقتنع بها وبالرغم من اعتلال صحتها - إذ مرضت – فإنها تخدم نفسها بنفسها ولا أزورها ولا أجالسها ولا

أتسامر معها ولا أحكى لها عن حياتي مع زوجي وأولادى كما تفعل الابنة مع أمها ولا أؤدى أي عمل سوى أني أشتري لها مشترياتها الأسبوعية مع مشترياتي ثم أذهب لأسلمها لها على باب سكنها وأتقاضى منها ثمنها وأنصرف وأنا أشيح بوجهي بعيدة عنها كارهة أن أنظر لها أو تلتقي نظراتى بنظراتها ولقد طلبت مني مرارة أن أتصل بها تليفونيا كل صباح لا لشيء إلا لأتأكد كما تقول من عدم وفاتها وهي نائمة.. حتى إذا طلبتها يوما ولم تجب على تليفوني أعرف أنها رحلت عن الحياة فأقوم بها ينبغي على القيام به في هذا الموقف. ومع ذلك فإني لا أعبأ بطلبها هذا ولا أتصل بها وتتصل هي بي فيها أن تحدثني حتى أبادرها بنفس السؤال الأزلي وتجيبني بنفس الإجابة.. بل وأقول لها كلاما موجعة عن ماضيها وأذكرها به فلا تجيبني سوى بالسؤال العاجز: وهل سأحاسب عما فعلت مرتين؟ مرة في الدنيا ومرة في الآخرة؟ دعى حسابي لربي فهو الحسيب..

لكني لا أدعها لحالها للأسف كلها حدثتني وأتحفز للهجوم عليها دائما..

إنني يا سيدى زوجة فاضلة أرعى الله ورسوله في كل أمر من أمور حياتى وموفقة مع زوجي والحمد لله ومحبوبة من كل أهلي وأهل زوجى وجيرانى وجميع من يعرفني أو يتعامل معى.. لكني لا أستطيع أن أمنع نفسي من كراهية أمي بعد أن تغلغلت في صدرى كما أني حائرة في فهم كيف ينطبق ما أمرنا الله تجاه أمهاتنا على مثل هذه الأم؟ وكيف أخفض لها جناح الذل من الرحمة. وأقول لها قولا كريما في حين أن نبرات صوتى تتغير تلقائيا وبغير وعي مني إلى الخشونة والجفاء كلما خاطبتها أو اضطررت للرد على سؤال لها. فاذا أفعل معها ومع نفسي وكيف أستريح من أفكاري المزعجة هذه؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

إنك يا سيدتي لم تغفري لها أبدا شقاقها مع أبيك ومسئوليتها عن هدم أسرة وحرمانك من الحياة الطبيعية بين أبوين متفاهمين كغيرك من الفتيات.. ثم ضاعف من حنقك عليها زواجها المخالف لكل شرع ودين وإقدامها عليه غير عابئة بدين أو أهل أو مجتمع.. أما ما عمق الحنق وحوله إلى كراهية عميقة الجذور فهو ما أخذتك به من شدة وصرامة في تربيتك بالمقارنة مع عطف أبيك وأحضانه وقبلاته.. مع أن هذه النقطة التي أصلت كراهيتها في أعماقك هي بالذات النقطة الوحيدة المضيئة في عهد جاهليتها! فلقد أحسنت إليكِ أمك كثيرة بإبعادك عن خطاياها وباهتمامها بتنشئتك التنشئة السليمة برغم لامبالاتها بالأعراف والتقاليد في حياتها السابقة. وهكذا الإنسان غالبا قد لا يخلو أحيانا ومهما كانت مساوئه وضلالاته من جانب أمين يبدو أحيانا متناقضة مع توجهه وسلوكه بصفة عامة.

لكن كل ذلك قد مضى الآن إلى غير رجعة وانقضت أيامه، وليس من شك في أن هناك نوع من العقاب الاجتماعي يناله في دنياه من لا يرعى حدود ربه في حياته.. وإلا لاستوى الصالحون وغيرهم في نظر المجتمع..

وما تحمليه من مشاعر الكراهية والازدراء تجاه أمك هو ضرب من هذا العقاب وجزء من فاتورة الحساب التي لابد أن يدفعها من لا يرد نفسه عن أهوائها ويستسلم لضعفه بلا حدود ولست أطالبك بالكف عن كراهيتها، واستبدال مشاعر الكره بمشاعر الحب التي يحملها الأبناء للأمهات الطيبات المضحيات بمجرد الرغبة في ذلك لأنه لا يغير ما بالقلوب إلا من خلقها.

لكني أطالبك بحسن مصاحبتها وبالكف عن إيذائها بالقول أو بالإشارة أو اللهجة الجافية في مخاطبتها. فلقد أمرنا الله بحسن مصاحبة لأبوين حتى في حالة شركها ولو جاهدانا على أن نشرك به. وكان الأمر صريحا في قوله سبحانه وتعالى:

وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى، فإذا كان هذا هو الحال في أمر الشرك بالله فكيف يكون فيها هو دون ذلك؟ إن الأبناء مطالبون بأن يقابلوا آباءهم وأمهاتهم وهم على حال المعصية بالنصح وليس بالمقاطعة والازدراء والتشهير.. وللآباء والأمهات وهم على هذه الحال على الأبناء حق الطاعة فيها لا يغضب الخالق ولا يتجاوز حدوده، وليس من حق الأبناء أن يتعدوا حدود الأدب في مخاطبتهم وهم على حال المعصية.. وإنا لهم فقط ألا يطيعوهم فيما يغضب الله فما بالك وقد نبذت أمك كل ما كانت فيه وعادت إلى رشدها؟

إنك لست مطالبة بأن تغفري لها ما كان من أمرها لأن حسابها عنه مع ربها وليس معكِ.. وهو وحده من يملك أن يغفر لها أو لا يغفر.

لكنكِ مطالبة فقط بأن تكفي عن مواصلة جلدها كل يوم بخطاياها السابقة.. وبألا تحملي نفسك إلا ما كان أغناك تحمله بتنكرك لها ونكوصك عن الاهتمام بأمرها والاستجابة لرجائها البسيط بالاتصال بها كل صباح للاطمئنان عليها.. وأداء ما تسمح لك به ظروفك من خدمة واجبة عليك لها. فلماذا لا تفعلين ذلك وأنت الزوجة الفاضلة التي ترعى حدود ربها في كل أمور حياتها.. ولماذا لا تتخلصين من هذا الكدر الذي ينغص عليك صفاء حياتك بمغالبة نفسك قليلا على أداء هذا الحق الإنساني لأمك عليك.

ان الله لم يغلق دونها أبواب رحمته وهو يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء ويقدر فلاذا تصرين أنت على إغلاق أبواب رحمتك في وجهها وهي في النهاية ليست سوى امرأة وحيدة نادمة على ما كان وتستجدي عطف ابنتها الوحيدة!

افعلي ذلك يا سيدتي دون تردد ودعي حسابها لخالقها سواء نجحتِ في التخلص من كراهيتها أم لم تنجحي فحسبك ألا تتجاوز المشاعر حدود الصدور وإلا تتحول إلى تصرفات وأعمال تأثمين بها وتعانين الإحساس بالذنب بسببها.. والله غفور رحيم..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المأزق..!

لا أدرى إن كانت رسالتي هذه ستلقى منك اهتماما كافية أم لا. ذلك لأنها تثير موضوعا قد تعتبره من الممنوعات.. وإن كان العالم كله ينظر إليه كأمر طبيعي للغاية..

والقصة أنني تزوجت في سن الثامنة عشرة من عمري وكان زوجى رجلا متفهما فوافق على استكمال دراستي الجامعية وأنا زوجة فقدرت له ذلك وعشت معه حياة سعيدة أحترمه وأحترم آراءه وأهله وأقوم بكل واجباتى نحوه..

وكان والداي يعيشان في إحدى مدن الجنوب.. وأبى طبيب ناجح وأمى سيدة مثقفة شخصيتها قوية ولي أخت متزوجة في سن صغيرة مثلي وتقيم في مدينة أخرى وأخ على وشك السفر في بعثة إلى الخارج.. وفجأة توفي أبى ورحل عنا، وتحير أخي ماذا يفعل ببعثته ثم استقر رأيه على ألا يضيعها من يده وسافر إلى الخارج ووجدت أمي نفسها وحيدة تماما في بيتنا وهي في سن الثامنة والأربعين من عمرها.. فانتقلت أنا وطفلي من القاهرة إلى مدينتنا القديمة وعشت مع أمي وأصبح زوجي يمضي مع نهاية الأسبوع في بيت أسرتي.

ولم يكن طبيعية أن أبتعد عن زوجي وبيتي إلى ما لانهاية فبحثنا لأمي عن شقة صغيرة بالقرب من سكني في القاهرة وانتقلت للإقامة فيها بحيث تكون إلى جوارى، وعانت أمي في وحدتها كثيرا في البداية.. فبعد أن كانت نجمة في مجتمع المدينة الصغيرة ولها صداقاتها العديدة فيها أصبحت تعيش وحيدة في شقة صغيرة في مدينة كبيرة لا أحد يعرف فيها أحدة.. وكحل لوحدتها عرضت عليها إحدى صديقاتها أن تشاركها في مشروع تجارى صغير لشغل فراغها فوافقت وأقبلت على العمل بحماس رغم أنها كانت تعمل لأول مرة في حياتها وحققت فيه نجاحا كبيرا.

وبعد عامين من ذلك عاد أخي في أجازة من بعثته ليتزوج ففاجأتنا أمي بأن هناك شخصا ممتازا تعرفت عليه في مجال عملها يطلب الزواج منها وسألتنا عن رأينا في ذلك. فأبدى زوج أختي موافقته ووافقت أختي بالتالي كما وافق أخي أيضا ربا بتأثير حياته لمدة عامين في الخارج في حين امتنعت زوجته الصعيدية عن إبداء رأيها.. أما أنا فقد اعترضت على زواجها بشدة وإصرار وقدت جبهة المعارضة بعناد ورفضت تماما الموافقة وأبديت أسبابى وحججى بصراحة مؤلمة بغير مراعاة لما كانت تحسه أمي من حرج ولا لعجزها عن الإفصاح عن أسبابها بصراحة.. وكانت النتيجة أن رفضت أمي الزواج واعتبرته منتهيا، وانشغلت بعملها ومساعدتي في تربية ابنتي وابني وتعليمها.

ومضى أكثر من عشرين سنة على هذه القصة ومازالت أمي والحمد تتمتع بصحتها وحيويتها وعملها. ثم منذ سنوات احتفلت مع زوجى بمرور خمس وعشرين سنة على زواجنا وسافرنا معا في رحلة قصيرة جميلة، وبعد عودتنا منها بشهور مرض زوجي لمدة أسابيع ثم توفي رحمه الله وانهارت حياتى وسعادتى فجأة فقد كان زوجي هو محور حياتى وقد ازداد التصاقنا وتقاربنا بعد زواج ابني وابنتي

وانشغالها بحياتهما الخاصة ولم يبق لكل منا سوى الآخر وسيطرت الكآبة على حياتي وفقدت الاهتمام بكل شيء وأمضيت ثلاثة شهور في غرفة نومي لا أغادرها ولا أرتدي ثياب الخروج وتزورني صديقاتي في حجرة النوم ويحاولن إخراجى منها بلا جدوى وازداد وزنى ستة عشر كيلو جراما خلال هذه الشهور الثلاثة وظهر الشعر الأبيض في رأسي. وكانت أمي تمر على كل صباح قبل ذهابها لعملها وبعد عودتها منه وكذلك ابني وابنتى ومع ذلك ظل إحساسى بالوحدة شديدة. وتركتني أمي على هذه الحال 3 شهور ثم ركزت اهتمامها على وبدأت تجرنى من الفراش جرة وبالعنف والإصرار وتلبسني أي ملابس يسمح وزني الجديد بارتدائها ثم تصحبني معها قسرا إلى النادي وإلى المشي في الشوارع المحيطة به لنتمشى ونتحدث ثم بدأت تجعلني أجرى في الصباح لأنقص وزنى. وشيئا فشيئا استجبت لمحاولاتها وخرجت من عزلتى واستردت بعض رشاقتي وصبغت شعري. وكنت قد حصلت بعد وفاة زوجي على أجازة من عملى بدون مرتب لمدة سنة فبدأت عن طريق معارفها تبحث لي عن عمل آخر لأجدد حياتي وأبتعد عن الذكريات الحزينة، وعملت فعلا في شركة أخرى وبدأت أندمج في الحياة مرة أخرى..

وبعد عامين تعرفت في عمل الجديد على أحد المتعاملين معها وهو رجل في مثل عمرى لاحظت عليه أنه مهموم ومشتت الذهن حتى لقد نسى لدينا أوراقا هامة تخصه فاتصلنا به ليتسلمها، فجاء شاكرا وعرفت منه أن زوجته قد توفيت منذ فترة قصيرة وأنه يعيش وحده وله ابن متزوج وأنه يعيش نفس الظروف التي عشتها بعد رحيل زوجي.. فقررت أن أشده للحياة كما شدتني إليها أمي وتكررت زياراته لنا في العمل وتحدثت معه كثيرا.. ووجدتني شديدة الاهتمام به وهو كذلك وبعد قليل طلب الزواج منى فطلبت منه مهلة للرد عليه ووجدت نفسي أواجه مأزقا لا أحسد عليه إذ ماذا سيقول أبنائي حين أبلغهم بهذا العرض؟ هل سيرفضون بإصرار كما رفضت أنا من قبل أن تتزوج أمي وقد كانت في مثل الآن؟ ولو رفضوا ولم يتفهموا كما لم أتفهم أنا ظروف أمي فلن أستطيع مخالفتهم... ثم وهو الأهم ماذا ستقول أمي حين تراني أطلب النفسي ما حرمتها منه وهي في مثل سني وكيف ستكون استجابتها؟ هل ستتعجب لذلك أم ستذكرني بما كان؟ إن أخي وأختي يوافقان على زواجي ربها حتى لا يشعرا بالذنب تجاهى كما أشعر أنا به الآن تجاه أمي فلقد عرفت أني ظلمتها.. لكني أخفف من إحساسي بالذنب بأني لم أكن أعرف أن الله سيمد في عمرها عشرين أو خمسة وعشرين عاما تعيشها في وحدة ولو عرفت ذلك في حينه لما عارضت في زواجها. ومن ناحية أخرى لا أتصور أن أعيش مثل هذا العمر وحيدة بلا رفيق يؤنس وحدتى كما عاشت هى.

إنني سيدة متدينة وأحس أن بيني وبين ربى صلة طيبة ومن حقي أن أمضى ما بقي من عمري في صحبة إنسان أشاهد معه التليفزيون وأشرب معه شاي الصباح وأستشيره في مشاكل عملي وأنتظر عودته ظهرة وأخرج معه في المساء ولست أطمع في ماله فقد كتبه كله لابنه ولا هو طامع فيما لدي.. وكلانا لا يطمع سوى في الرفقة السعيدة الهادئة في هذه المرحلة من العمر.. إنني أنتظر حكمك العادل سواء

أيدتني في رأيي أم اعتبرت زواج امرأة في سني أمرا غير لائق... فاذا تقول في ذلك؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

ذكرتني تساؤلاتك المثيرة للتأمل في نهاية رسالتك بها قاله الخليفة العباس المعتصم حين حضرته الوفاة قال: لو علمت أن عمري قصير.. ما فعلت!

ومع أنه لم يفصح عما لو علم لما فعله، إلا أن المعنى الواضح هو أنه لو علم بقصر عمره وقد مات في سن الثامنة والأربعين لكان أكثر إنصافا وأقل اجتراء على المظالم. ولأنه لا أحد يا سيدتى يؤتى علم الغيب أو يعرف كم يطول به العمر فالأجدر به دائما هو أن يكون منصفا مع نفسه ومع الآخرين وأكثر فهما لأعذار الناس وأقل تبرعا بلومهم دون تقدير لظروفهم ودوافعهم.. لأن هذا أقرب للعدل ولأنه لا يعرف ماذا ستفعل به الحياة في قادم الأيام ولا كيف سيكون تصرفه إذا ما وضعته الأقدار في نفس الظروف التي يغالى الآن في انتقاد من وضعوا فيها بلا رحمة أو إنصاف على أية حال يا سيدتى فقد استدعت تجربتك الغريبة هذه التأملات العابرة، أما عن رأيي في مشكلتك فلست أدري لماذا صنعتينى بين من لا يعذرون الآخرين ولا يتفهمون احتياجاتهم الإنسانية والوجدانية في مراحل العمر المختلفة؟ وفي ذلك فإني أقول إنك أخطأت فهمى...

فالحق أن معياري الأول في الحكم على تصرفات الآخرين هو ألا تتعارض بالضرورة مع الشرع والدين والقيم الأخلاقية ثم بقدر المستطاع مع التزامات الإنسان الرشيدة تجاه أبنائه وأهله ونفسه وكل ماعدا ذلك جائز ومقبول إذا توافرت له الظروف الملائمة بغير ابتذال يسيء إلى احترام الإنسان لنفسه أو ينقص من قدره عند الآخرين وتحريم الحلال يا سيدتى إثم لا يقل شناعة عن تحليل الحرام. ولقد قلت أكثر من مرة أن المرأة إذا أنست في نفسها رغبة ملحة في الزواج تخشى معها الفتنة ولم تستطع تقبل الحياة بغيره فإن زواجها في أي مرحلة

أحد وليمحنها

من العمر أكرم لها وأصون لحرماتها وليس من حقنا حينذاك أن نسألها لماذا تتمسكين بالزواج الآن أو لماذا لا تضحين به تجنبا لإحراج أبنائك المتزوجين؟.. إذ مادامت قد قدرت كل الظروف المحيطة بها ولم تطق على وحدتها صبرا... فلها أن تفعل ما تشاء في حدود الشرع والدين لكن عليها أيضا أن تضع مصلحة أبنائها في الاعتبار، وألا تضحى بها وتعرضهم للضياع والمهالك جريا وراء رغبتها وحدها، بل وألا تتسبب في إحراجهم إحراجا لا يطيقونه ولا يصبرون عليه، وإذا قر قرارها وكان الزواج ملائما ولا ينقص من قدرها في عيون أبنائها وأهلها ولا من قدر أبنائها في عيون الآخرين فلتقدم عليه غير ملومة من أبناؤها تأييدهم ومباركتهم، أما إذا كان غير ذلك كأن تتزوج مثلا ممن يصغرها بثلاثين سنة أو من لا يتكافأ معها اجتماعية وأسرية أو من يبدو واضح الطمع في مالها ومال أبنائها فالزواج في مثل

هذه الحالات لا تتوافر فيه شروط الكفاءة والاحترام فإنه ينذر بالعواصف والزلازل ويقترب من حدود النزوات والأهواء التي لا يليق بجلال الأم ومكانتها ويحق للأبناء في هذه الحالة أن يعترضوا عليه بشدة وأن يتمسكوا بموقفهم.

زواج «الأيامى» أي النساء اللاتي لا أزواج لهن سواء كن أرامل أو مطلقات أو تأخر بهن الزواج أمر مندوب إليه ومفضل في ديننا وعند الفضلاء من الناس. فلا تقلقي إذن من تعجب والدتك من طلبك لنفسك ما أنكرتيه أنت عليها منذ عشرين سنة فلقد أنكرت عليها موقف الابنة التي تتفهم دوافع أمها للزواج بعد الترمل كراهة للوحدة أما هي فلن تنكر عليكِ رغبتك من موقف الأم التي تطلب السعادة دائما لأبنائها وترجو لهم مالم يتح لها هي في دنياها وهذا هو دائما موقف الأم السوية. أما الموقف المؤثر حقة فسيكون موقف أبنائك وليس موقف أمك فعسى أن يكونوا أرفق بك مما كنت أنت بأمك في شبابك..

وعسى أن تكوني أنت قادرة على التضحية والنزول عند رأيهم، مراعاة لاعتباراتهم عند الضرورة كما فعلت أمك في سابق الزمان.. وكما ينبغي أن تفعل أيضا الأم الرؤوم مع أبنائها إذا عجزت عن إقناعهم بدوافعها وأسبابها.. وشكرا لك

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الطرقات الثقيلة!

لست غريبًا عليك فقد جئت إليك منذ شهور ورويت لك قصتي باختصار.. وأريد الآن أن أواصل روايتها.. لتعرف ماذا صنعت الأيام بى. وقبل أن أستطرد فيها حدث بعد مقابلتك الأخيرة أسترجع في خيالي قصتي مع الحياة فأجدني دائما أبدأ من البداية المبشرة بالأمل وأنا طالب بالثانوية العامة وابن لعامل بسيط مرتبه اثنا عشر جنيها وكلى إرادة وإصرار على التفوق لأحصل على مكافأة المتفوقين في الثانوية العامة وكانت 84 جنيها كاملة.. فشحذت إرادتي الصلبة ودخلت الامتحان محملا بالآمال ودعوات الأهل فاجتزته وحصلت على مجموع ٨٩٪ من القسم العلمي.. وسعدت بي أسرتي البسيطة وتعلق أملي بالمكافأة «الكبيرة التي سوف أستعين بها على الدراسة الجامعية طوال السنة التالية، وبالرغم من أن مجموعى وقتها كان يؤهلني للالتحاق بإحدى الكليات المرموقة إلا أني اخترت دراسة الحقوق لأني كنت أتمنى منذ طفولتي أن أعمل كمحام كما أن ظروف أسرتي لم تكن تسمح لي بالمغالاة في الأحلام. فالتحقت بإحدى كليات الحقوق وأمضيت عامي الأول فيها معتمدا تقريبا على مكافأة التفوق وما أكسبه من العمل في الإجازات القصيرة حين أعود إلى بلدتي الصغيرة ونجحت بتفوق في العام الأول فاستحققت مكافأة الجامعة. وواصلت دراستي بتفوق حتى لا تنقطع عنى هذه المكافأة التي أصبحت عائدي الأول في الحياة وحصلت على الليسانس ولم أفكر في البحث عن وظيفة وإنها قررت أن أعمل كمحام حرّ وبحثت عن محام كبير يقبل تدريبي في مكتبه فرحب بي أكثر من واحد منهم لتفوقي واستقامتى. وأمضيت فترة التدريب بجدية، وبعد فترة قصيرة حققت أمنيتي وعلقت على بيتنا القديم لافتة خشبية تحمل اسمى وأقبلت على عمل بحماس ونشاط وحققت فيه نجاحا غريبة بالنسبة لزملائي، واستطعت خلال عدة سنوات أن أحقق أكبر أحلامي وأتزوج حبيبة العمر التي راقبتها وهي طفلة صغيرة تلهو وأحببتها في داخلي وهي في سن الصبا.. وتفاهمت عيوننا وهي في بداية سن الشباب وكانت نظراتها الوادعة المشجعة أكبر عون لي على احتمال صعوبة الطريق فما أن استطعت توفير متطلبات الزواج حتى تقدمت لها وتزوجنا وسط فرحة الأهل وسعدت بالحب والحنان وتفرغت لعملي المهني وأعطيته كل وقتى وجهدي، ومضت أيامنا سعيدة وأنجبت طفلا جميلا وادعا كأمه.. وحبا الطفل على الأرض بعد شهور ثم تعلم الوقوف والمشي والجري وأصبح عمره عاما ونصف عام.. واقتربت الأجازة الصيفية من نهايتها فخرجت زوجتي مع ابننا تزور أهلها وعادت في المساء لكي تستعد معي للعام القضائي الجديد الذي سيبدأ بعد غد بغسل ملابسى وكى قمصاني وبدلتي. وفي اليوم التالي انشغلت بذلك بينما انشغلت أنا بمقابلة بعض المتقاضين في غرفة المكتب بمنزلنا استعدادا لقضية ستنظر غدا.. فطرقت زوجتي الباب طرقات خفيفة وخرجت إليها فطلبت مني التليفون في حياء لتخاطب أسرتها وأعطيته لها وعدت إلى المتقاضين وانشغلت معهم في الحديث، فإذا بطرقات ثقيلة متوالية على باب المكتب فانزعجت وخرجت لأرى والد زوجتي ووالدتها، وتعجبت للحظة لأني لم أشعر بمجيئهما.. ثم اشتد عجبى وانزعاجى حين أبلغاني أن زوجتي الشابة مريضة وفي غيبوبة.. متى مرضت؟ ومتي راحت في

الغيبوبة لا أعرف.. وأسرعت إليها فوجدتها غائبة عن الوعي وهرولت لإحضار سيارة أحد الأصدقاء وحملت زوجتي على كتفي إلى المستشفى والتف حولها الأطباء ولاحظت وجومهم وتحفظهم فهيأت نفسي لأن أتجلد بقدر ما أستطيع إذا بلغوني أنها ستحتاج إلى جراحة عاجلة أو أن غيبوبتها ليست حالة إغماء طارئة وإنها سيطول علاجها بعض الوقت وسيضطرون لاحتجازها بالمستشفى، وبينها أنا غارق في أفكارى فوجئت بهم يعودون إلى واجمين ويبلغونني بأن زوجتي بين يدي الله من قبل أن تصل إلى المستشفى... لا إله إلا الله زوجتي الشابة التي لم تكمل الثانية والعشرين من عمرها وأم طفل الذي لا يزيد عمره على عام ونصف عام والتي لم تمرض ولم تشك من شيء؟ إذن لهذا طلبت منى التليفون لتستدعي أهلها حين أحست ببوادر الأزمة وأشفقت على فلم تزعجني بتعبها وأنا مشغول مع عملائي... لا حول ولا قوة إلا بالله.. أي عمل يستحق ألا تقطعه علىّ وألا تخرجني منه لإسعافها وإنقاذها أو حتى لتلقى ربها وهي على صدري لقد عدنا إلى البيت مذهولين لا نصدق أنفسنا، وفي اليوم التالي خلا البيت منها للأبد وبعد أيام رجع طفلي الوحيد من البيت الذي أبعدناه إليه ليواجه قدره الحزين معي فلم أنس حتى الآن أن كان أول ما فعل هو أن جرى إلى المطبخ يبحث عن أمه كما اعتاد أن يفعل، وحين لم يجدها جرى إلى غرف المنزل باحثا عنها ثم صعد إلى السطح وعاد مرتعبة خائفة وارتمي على ولم ينطق بكلمة ولم يبك كأنها أنزل الله عليه سكينته ونام في حضني، وهو متشبث بي، ومن هذا اليوم وحتى الآن أصبح لا ينام إلا متشبثا بى كأنما يخشى أن أضيع منه كما ضاعت أمه وبعد رحيل زوجتي بعدة شهور بدأت أحس بالإرهاق الشديد فعرضت نفسي على أطباء بلدتي فإذا بي اكتشف مرضي بالتهاب الكبد الفيروسي «سي» وإذا بي أبدأ رحلة علاج استنزفت كل ما بقى لي من مدخرات.. وضاعفت من همي وخوفي على طفلي الوحيد اليتيم وطالت رحلة العلاج ثلاث سنوات حتى الآن وعزمت على السفر إلى القاهرة لعرض نفسي على أكبر أطباء الكبد وفي هذه المرحلة منه جئت حاملا إليك هما يفوق قدرتى وطاقتى فقد قرر طبيب المعالج أنه لا علاج لى إلا حقن «الانترفيرون» وأن على أن آخذ منها تسعين حقنة متوالية وذهبت أسأل عن هذه الحقن فإذا بثمن الواحدة منها يزيد على المائتي جنيه وأن الحقن المطلوبة تتكلف حوالي اثنى عشر ألف جنيه..

ووقفت عاجزة ولجأت إلى نقابتي وإلى القومسيون الطبي.. ولا أطيل عليك في هذه النقطة فلعلك مازلت تذكر تفاصيلها.. كما لعلك مازلت تذكر أيضا أنك طلبت مني بعد أن استمعت إلى قصتي أن أعود لمدينتي وأنتظر اتصالا قريبة منك إن شاء الله، وبعد أيام قليلة فوجئت باتصال يستدعيني لمقابلتك في القاهرة مرة أخرى وأسرعت إليك فسلمتني خمسا وثلاثين حقنة وطلبت مني أن أذكرك بأمري حين تقارب هذه الحقن على النفاذ بعد أربعة شهور وعدت إلى مدينتي شاكرة وممتنا، وبدأت العلاج بالحقن وبعد كل ثلاث حقن منها أجرى بأمر الطبيب تحليلا كاملا للدم وعدد الصفائح الدموية وكرات الدم البيضاء حتى وصلت إلى الحقنة الخامسة عشرة فقرر الطبيب إيقاف العلاج بالحقن فورا لأن الصفائح الدموية تقل بنسبة مخيفة وأي حقنة أخرى ستؤدي إلى النزف، وداومت على التحليلات كل فترة عسى أن تتحسن النسبة لأعاود العلاج بالحقن فترتفع قليلا وتعود لتنخفض وهكذا أصبح الأمل الوحيد هو

عملية زرع الكبد في الخارج التي لا أستطيع حتى تخيل تكاليفها الرهيبة. ولست بالطبع أكتب إليك لتسعي إلى تدبير هذه الجراحة الخيالية لى كما حدث عن طريق بابك لمهندس مصري شاب في لندن لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها. ولأن المعجزات لا تتكرر كثيرا وإنما أكتب إليك لأستأذنك أولا في الحضور مرة أخرى لأعيد ما تبقى من الحقن وهو عشرون حقنة لعل غيرى يكون محتاجا إليها ولا يقدر على ثمنها ولأسألك أيضا ماذا أفعل مع طفلي الوحيد المحروم الذي يبلغ من العمر أربع سنوات والذي ينام متشبثا بي إلى أن يطلع النهار فأودعه الحضانة وأذهب إلى عملي ثم أعود فأخرجه ويلازمني حتى الصباح التالي. إن ارتباطه بى شديد وأنا أخشى عليه من تقلبات الأيام.. وأريد أن أعوده تدريجيا على غيبتي عنه.. لهذا أفكر في البحث عن عمل في الخارج ليعتاد غيابى، من ناحية خاصة إني في سن الشباب وأستطيع الصمود والتحمل، ومن ناحية أخرى لكي أدبر له بعض ما يعينه على الحياة في المستقبل فيها رأيك في ذلك.. وهل تؤيدني في تفكيري هذا!

∞∞∞∞∞∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

«ويخلق مالا تعلمون».. صدق الله العظيم لعلك تذكر أنت أيضا أني قد أجبتك بذلك حين رويت لى عن حيرتك ووقوفك عاجزة أمام تكلفة الحقن المطلوبة.. فإذا بربك يهيئ لك بأيدي بعض عباده ما يقرب من نصف الكمية خلال أيام قليلة وتعود بها راضيا متعجبا.

والآن أعيد تذكيرك بهذا الجزء من الآية الكريمة مرة أخرى وأطالبك بأن تردده لنفسك كثيرة كلها سيطرت عليك الهموم. فالمستقبل يا صديقى غيب لا يعلمه إلا الله.. وخير ما نفعله للاستعداد له هو أن نؤدي واجبنا اليوم تجاه الحياة على خير ما يرام ثم ندع أمر المستقبل لمن بيده وحده أمره.. والانجليز يقولون في أمثالهم: لا تعبر جسرا قبل أن تصل إليه! أى لا تبالغ في الخوف من السقوط من فوق الجسر الضيق في مياه النهر.. وأنت مازلت بعيدة عنه ولم تقترب منه بعد. فقد يشغلك خوفك من عبور الجسر البعيد عن الاحتراس لعثرات الطريق التي تحت قدميك.. وأنت يا صديقي لم تفقد الأمل نهائية في العلاج بالحقن وإنما توقفت فقط بناء على أمر الطبيب وقد تعود النسبة للصعود بعد وقت آخر وينجح العلاج بها بإذن الله، وقد يهيئ لك الله أمر الجراحة التي تبدو لك الآن حلا بعيد المنال، ولا غرابة في ذلك ولا عجب فعجلة الحياة سريعة الدوران.. وما يجري حولنا الآن في العالم يكاد يكون من قبيل المعجزات التي لو تنبأ بها أحد منذ سنوات لاتهمناه بالجنون. ومنذ أيام قليلة فقط قام طبيب مصري عظيم مقيم في لندن هو الدكتور ناجى حبيب بإجراء جراحة زرع الكبد هذه في معهد الكبد بالمنوفية لأول مرة في تاريخها وبالأجهزة المتاحة في المعهد المصرى وبمعاونة أطباء مصريين، وسيعود فيما علمت مرة كل شهرين لإجراء جراحات مماثلة وللإشراف على تدريب الجراحين المصريين عليها لكي يصبح لدينا خلال عامين فقط فريق منهم يقوم بهذه الجراحة الكبيرة بتكاليف لا

تقارن بتكاليفها في الخارج.. فلماذا اليأس إذن من رحمة الله.. والحياة كما قلت لك لا تتوقف ولا تثبت على حال؟!

نعم.. لا بأس بأن تفكر في السفر إذا رأيته حلا لبعض مشاكلك المادية.. ولكن بدافع الأمل في حياة جديدة تعوض فيها ابنك بعض ما فقده.. وليس بهدف تعويده» على غيبتك وافتقادك لأنك لا تدري من أمر غددك شيئا.. ولا تدري ماذا تفعل غدا.. ونحن عموما لا نفر من قضاء الله إلا إلى قدره فتخلى إذن عن هذه النغمة اليائسة.. واعلم أن صحة النفس تساعد الجسم على مقاومة الأمراض، فساعد نفسك على الصمود ولا تخذل طفلك الوحيد وتشبث بالحياة كما يتشبث بك هو فذلك أفضل كثيرا لك وله.. وللجميع. وشكرا.

∞∞∞∞∞∞

نظرة الانكسار!

أنا إعلامية أعمل بالإذاعة في أقسام الأخبار، تزوجت وأنجبت فاخترت العمل في وردية الفجر لإعداد نشرة الأخبار حتى لا أغيب عن أطفالي الرضع ولأعود إليهم في الضحى فكنت أغادر مسكنى في العمارة التي نقيم بها قبيل الفجر وأركب سيارة الإذاعة إلى عملي وأعود إلى بيتي قبل الساعة الحادية عشرة صباحا. وكنا كسكان للعبارة نعرف أنه في الدور السابع من عمارتنا تقطن سيدة شابة تعمل راقصة بالملاهي وتقيم بمفردها، ونتجنبها ونقاطعها جميعا فلا كلام ولا تحية بيننا إذا تقابلنا صدفة في مدخل العمارة أو على السلم ولا نشركها معنا في أي أمر من أمور السكان، وكان من النادر أن يراها أحد لكني كنت كثيرا ما أصادفها عائدة إلى العمارة وأنا أغادر مسكنى للذهاب للإذاعة في الفجر فلا نتبادل التحية بالرغم مما كنت أحسه أحيانا من تشوقها إلى كسب مودة جاراتها وكلهن زوجات لرجال محترمين، ثم حدث بعد ذلك أني لم أعد أصادفها عائدة في الفجر إلى العمارة وعرفنا أنها قد تزوجت من رئيس فرقتها الموسيقية واستقرت في شقتها بالدور السابع ولم تعد تغادرها إلا للذهاب للسوق وشراء احتياجات البيت كأي زوجة أخرى. وبعد أيام أخرى صادفتها إحدى جاراتنا على السلم فرأتها في صورة جديدة تدعو للاحترام والدهشة فقد كانت محجبة حجابا جميلا ووجهها خال من الأصباغ ومظهرها هادىء ومحترم.

فبادرتها جارتنا بالتحية لأول مرة وأجابتها السيدة المعتزلة بحرارة وترحيب.. وأنجبت تلك السيدة الشابة واحتفلت بمولودها الأول احتفالا عائلية بسيطة ووزعت الصدقات. وأرسلت علب البونبون لأطفال العمارة فتقبلتها الجارات بلا اعتراض. وبدأت زوجات العمارة يتحدثن معها إذا رأينها في صعودهن أو هبوطهن للسلم وتجلى حرصها على علاقتها بالسكان وعلى نيل مودتهم في المناسبات المختلفة وفي أداء واجبات التهنئة والمواساة وزيارة المرضى، أما زوجها فقد اكتسب احترام السكان بغير جهد كبير بشهامته مع الجميع وبطبيعته غير المفتعلة كإنسان خدوم يبادر بخدمة أي جار يحتاج إلى خدمة وبأدبه الجم وإغضائه البصر مع كل سيدات العمارة، وأصارحك يا سيدي أني أحببت سريعا هذه السيدة المعتزلة ومنحتها ثقتي واحترامى خاصة بعد أن لاحظت عليها حرصها على أداء الفروض الدينية وعفة لسانها واقتربت منها وعرفت قصة دخولها عالم الفن وهي قصة غير تقليدية أدت إلى تبرؤ أهلها منها ومقاطعتهم لها إلى الأبد وبلا أي أمل في عودة العلاقات معها..

ومضت الأيام بهذه الأسرة الصغيرة.. ولم تكن لعائلات العمارة عليها أية ملاحظات سوى إسرافها في الإنفاق على نفسها وعلى الآخرين كالبواب وصبيان المحلات التجارية التي تتعامل معها وشغالي العمارة، وفسرنا ذلك بأن الزوج يكسب من عمله كموسيقى الكثير وينفق إيراده بسهولة وبلا احتياط للزمن وبأن الزوجة معتادة على الإنفاق وارتداء الملابس الثمينة وعلى المظهر الفخم من حياتها السابقة..

وفي جلسات الصباح حين تجتمع بعض الزوجات الصديقات في شقة إحداهن لتناول القهوة وتبادل الأحاديث في غياب الأزواج أصبحت تلك السيدة تجلس بيننا في أدب

ووداعة وثقة في النفس وقد منحها الله قبولا من عنده لدى الجميع كما أصبحت تدعونا من حين لآخر لمثل هذه الجلسة في شقتها وتبالغ في إكرامنا والحفاوة بنا في غياب زوجها ويلفت نظر البعض منا فخامة أثاثها ونظافة شقتها المتناهية ونظافة أطفالها الصغار ونظافتها الشخصية دائما..

ولم نكن نزورها في شقتها في الصباح إلا إذا كان زوجها مسافر خارج القاهرة في رحلة فنية، لأنه في الأيام العادية كان يمضي نهاره في البيت ويخرج لعمله في المساء. ومنذ ثلاث سنوات أرسلت في الصباح شغالتي إلى هذه السيدة لطلب لم أعد أذكره الآن، فصعدت إلى شقتها ووجدت «الاستاذ» قد انتهى من تناول إفطاره ويتناقش على الباب في مرح مع محصل الكهرباء حول قيمة الفاتورة الباهظة وهو يدفعها، وانصرف المحصل ضاحكا.. فتنبه الأستاذ للشغالة وداعبها ودعاها للدخول واتجه إلى البهو وهو ينادي زوجته.. فإذا به يسقط على الأرض فجأة..

وكنت في شقتى فسمعت صراخا هيستيرية وفوجئت بالشغالة تهرول عائدة في فزع وتقول لي إن الأستاذ فلان قد «طب ساكتا» وأسرعت إلى شقة جارتي فوجدته ممدا على الأرض وقدرت أنها حالة إغماء مفاجئة فأسرعت أطلب سيارة الإسعاف وتجمعت سيدات العمارة في شقة الجارة الشابة وجاءت سيارة الإسعاف فطلب الطبيب إنزال المريض إلى السيارة في الشارع لعدم وجود مصعد. وجاء زوجي المحامي فحمل الجار الطيب الشهم على كتفه من الدور السابع إلى الدور الأرضي وتم إدخاله إلى سيارة الإسعاف. وتحركت السيارة مسرعة إلى المستشفى وقبل أن تصل إلى نهاية شارعنا فوجئنا بصوت فراملها ثم بعودتها القهقري إلى باب العمارة، وبالطبيب الشاب يطلب من زوجي إعادة الجار إلى مسكنه لأنه «إنا لله وإنا إليه راجعون».. وصعق زوجي.. هذا الجار الخجول الشهم الذي لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمره وكان يتفجر حيوية ومرحة منذ لحظات؟.. نعم هذا ما حدث وانتهى كل شيء في غمضة عين ودفع الحاضرون أجر استدعاء السيارة.. وحمل زوجى جاره مرة أخرى على كتفه إلى الدور السابع.. ووقفت الزوجة مذهولة بين جيرانها لا تدرى ماذا تفعل وهي بلا أهل وأكبر أطفالها لم يتجاوز السادسة وتطوع الحاضرون لعمل اللازم.. وقام زوجي بالإجراءات الضرورية وحمل الجميع الراحل إلى بلدته بإحدى محافظات الوجه القبلي القريبة وتمت المراسم الحزينة وأقيم العزاء هناك. وعاد الجميع في المساء وصعدت زوجات سكان العمارة لمواساة الأرملة الشابة وحاولن تشجيعها فظلت تتمتم في هيستيرية ومن بين دموعها بعبارة واحدة هي: أن الخراب قد بدأ.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وبعد أن أفاقت قليلا لنفسها سألت عمن دفع تكاليف المراسم والإجراءات وأصرت بعناد على أن تدفع لكل ذي حق حقه ورفضت كل محاولات التأجيل أو الاعتذار. وأجابتنا حين سألناها عن أحوالها المادية باقتضاب إنها مستورة. وأنهى لها زوجي إجراءاتها القانونية اللازمة لإعلام الوراثة الخ ولاحظنا كثرة بكائها وتطلعها الحزين لأطفالها الصغار الذين أدخلتهم مدرسة لغات وكانت تحلم لهم بحياة أفضل من حياتها، وأدركنا أنها تواجه أزمة مادية كبيرة لكنها تتعفف عن أن تشير إليها بعزة نفسها الكبيرة فعرضنا عليها المساعدة المادية فرفضت بإصرار.. ثم لاحظنا

بعد ذلك أنها تبيع الات زوجها الموسيقية من حين إلى آخر لتواجه نفقات أطفالها وحياتها.. فعرض عليها أحد الجيران أن يقدم لها مرتبا شهرية يعينها على حياتها فاعتذرت شاكرة بإصرار وأبلغت زوجته بأن من يريد أن يساعدها فليوجد لها عملا شريفا تنفق من أجره على أطفالها..

ولمست أزمتها عن قرب وأشفقت عليها من تغير الأحوال خلال وقت قصير بعد أن كانت تنفق عن سعة ومن خلال اضطرارها لبيع آلات زوجها الموسيقية عاد بعض أصدقاء الوسط القديم الذين حجبهم زوجها عنها للظهور في حياتها وزيارتها من جديد ووسوس لها بعضهم وهم يلمسون تقشف حياتها ويرونها تبيع بعض أجهزتها المنزلية كالمسجلات وغيرها لتعيش أن تعود إلى «عملها» السابق خاصة وأن كل ما تحتاجه هو بعض التدريب والتمرينات الرياضية لاستعادة رشاقتها القديمة ثم تبدأ العمل وتجد كل مشاكلها حلولها بطريقة سحرية! لكنها رفضت بشدة مجرد مناقشة الفكرة.. وقالت لي لن تخون زوجها الراحل وأطفالها بعد أن هداها الله للإيمان والاستقامة، وألحت عليّ في الاسراع بإيجاد عمل لها وتداولنا في أمرها.. وتساءلنا عن نوع العمل الذي تستطيعه وهي لم تكمل تعليمها ولم تحصل على الثانوية العامة..

ولاحظت بالأسف أن عزة نفسها قد بدأت تتكسر داخلها بعض الشيء مع استمرار المحنة وتزايد صعوبة الحياة وعرضت عليها إحدى جاراتنا أن تعمل مربية وشغالة لدى إحدى الأسر وهي تتوقع أن تثور عليها وتلومها.. ففاجأتنا بالقبول قائلة إنه عمل شريف ولا يسئ لأولادها بعكس عملها القديم. وأرسلتها جارتنا إلى تلك الأسرة وهي مشفقة عليها من التجربة فذهبت طائعة فإذا بالأسرة ترفضها لا لماضيها فقد شهد لها الجميع بالتدين والأخلاق الكريمة وإنها لسبب عجيب هو أن مظهرها فخم جدا وأنيق للغاية حتى في حجابها الجميل. وعادت باكية تقول: وماذا أفعل بملابسي هل أبيعها هى الأخرى.. ومن يشتريها.. ولماذا ينبغي على أن أرتدي الملابس الرثة لكي أحصل على عمل شريف؟

وأرسلها بعد ذلك جار آخر إلى صديق له صاحب مصنع صغير للملابس الجاهزة لتعمل عاملة في مصنعه وذهبت إليه واستقبلها وطلب منها الانصراف وانتظار رده عليها مع صديقه. ثم اتصل بجارنا معتذرا عن عدم تشغيلها عاملة في مصنعه لأنها تصلح كما قال لأن يعمل هو عندها وليست هي عنده! وبكت مرة أخرى وهي تسألني ماذا تفعل في مظهرها وكيف «تبهدله» لكي تحظى بقبول أصحاب المصانع والمشاغل الصغيرة، لقد حاولت أن تكسب رزقها بخياطة الملابس على ماكينة صغيرة أهداها لها أحد جيراننا وألح عليها في قبولها حتى قبلت.. لكنها لم تستطع إجادة الخياطة إلى الدرجة الأولى التي تغري جدا بالتعامل معها..

ولست في الحقيقة أخشى عليها من أن تضعف أمام إغراءات أو نداءات وسطها القديم، فهي شديدة التدين ولا أغالى إذا قلت إنها أكثر تزمتا من كثيرات ممن لم يكن لهن نفس ماضيها.. لكني فقط أشفق عليها من نفاد صبرها على صعوبات الحياة بعد أن طالت شدتها ثلاث سنوات حتى الآن بلا أمل في الانفراج.. وأشفق عليها أكثر من نظرة الانكسار التي استقرت في عينيها في الفترة الأخيرة ومن أن عزة نفسها

القوية قد بدأت تتكسر داخلها وهي من كانت قبل ثلاث سنوات فقط موضع «غبطة» ولا أقول حسد أخريات بسبب ترف حياتها وكثرة إنفاقها وإنفاق زوجها. ومازالت صديقتي التي أقول على الملأ إني أعتز بصداقتها ترفض قبول المساعدات المادية ولكن ليس بالغضب والاستنكاف السابقين وانما بالبكاء والاستحياء والاعتذار شاكرة..

ومازالت تطلب العمل الشريف أليس عندك حل كريم لمشكلتها؟

∞∞∞∞∞∞

ولكاتبة هذه الرسالة أقول:

الحق أني أشفق عليها أكثر وعلى غيرها من أصحاب العقول من التناقض الذي يحير الأفهام أحيانا بين «سهولة» ورود نهر الحرام الدافق وصعوبة ورود نهر الرزق الشريف أحيانا لمن تاب وآمن وأراد أن يلقى وجه ربه مطهرا..

هذا هو التناقض الغريب الذي أشفق عليها منه والذي يسهم بعضنا بغير وعي أحيانا في تعميقه حين يسد عمدا أبواب الرزق على العائدين إلى الطريق الصحيح والمتمسكين به في وجه الإغراءات والصعوبات وهو تناقض قديم أشار إليه الشافعي في بعض أشعاره حين قال:

ومن الدليل على القضاء وحكمه

بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

هذا إذا أسفنا إلى مفهوم الأحمق الذي قد يتسع رزقه من حلال أحيانا بغير جهد منه أو كفاءة مفهوم الأحمق الآخر الذي يرضى لنفسه وأهله أن يطمعوا من حرام وهو كذلك بكل تأكيد وبالمقاييس الصحيحة.

كذلك فقد اعتبره الشاعر العربي أبو تمام من حقائق الحياة التي يخفى سرها على الإدراك ووجد تبريرها في قوله:

لو كانت الأرزاق تجري على الحجا

هلكن إذن من جهلهن البهائم

لا يجتمع شرق وغرب لقاصد

ولا المجد في كف امرىء والدراهم

ولسنا في الحقيقة ننتظر أن يجتمع شرق وغرق» لقاصد. لأننا نعرف جيدا أن لكل إنسان ما ينقصه وما يتطلع إليه دائما.. كما نعرف أيضا أن لكل إنسان اختياره في الحياة.. وأن لكل اختبار تبعاته وفاتورته التي يدفعها راضيا.. فمن اختار الانحراف والحياة اللذيذة التي لا تؤرقها مسائل الحرام والحلال... فليهنأ بما اختار وليدفع فاتورته غير شاكٍ في الدنيا من احتقار الآخرين له.. وفي الآخرة من عذاب الجحيم وليس من حقه بعد ذلك أن يأسي على عدم احترام الناس له أو رفضهم أو نبذهم له

أو جفوهم من مصاهرته أو الاحتكام إليه في أمور الدين والدنيا.. بسبب منطقي بسيط هو «أن المرأة التي تتقاضى أجرها ليس من حقها أن تطالب بالزواج». كما يقول المثل الانجليزي! وكل منحرف يستهين بقيم دينه وحدود ربه وأعراف مجتمعه وينهل من المورد الحرام بلا حساب هو كالمرأة التي تتقاضى أجرها ولا يحق لها أن تطالب بالزواج أو بالاحترام والقبول والشرعية وبراحة القلب والنفس والضمير.. وبأجر الصالحين في الدنيا والآخرة، لأن ذلك كله هو جائزة «لحرمان» من اللذائذ المحرمة، وجائزة الحرمان أحيانا من «طيب عيش الأحمق» والمنحرف والسارق والمختلس وتاجر السموم وناهب الأموال وسارق الأعراض.. الخ ولن يجتمع مرة أخرى شرق وغرب لقاصد على ظهر الأرض إلا من رحم ربك وهداه إلى الطريق القويم وأجزل له العطاء في الدنيا.. وفي الآخرة... ليكون مثالا للناظرين، وإن لم تخل حياته غالبا من أشجانها التي لا يعرفها غيره.

وقصة صديقتك يا سيدتي ترجمة مؤلمة لهذا التناقض القديم، ولست ألوم الأسرة التي رفضتها شغالة ومربية أطفالها حتى وإن اختلفت معها في الرأي لأن لكل إنسان تقديره الخاص فيما يتعلق بتربية الأطفال.

لكنى ألوم بشدة صاحب المصنع الذي ضنّ عليها بهذا العمل البسيط لمجرد أن مظهرها محترم ولا يتفق مع مظهر العاملات عنده. فليس هكذا نعين من اختار الرزق الشريف على شحه وفضله على النبع الغزير، ولا هكذا ينبغي أن نعين من اختار العمل الشريف راضية بعائده البسيط.

وهناك على الضفة الأخرى من النهر من يناديه أن هلم لترد نبعنا وتجد كل ما تحتاج إليه بلا حساب ولا عناء! «وبئس الورد المورود» صدق الله العظيم.

إنني مثلك لا أخشى عليها من أن تضعف أمام صعوبات الحياة أو تتنازل عن قيمها لأن من عرف الطريق الصحيح واختاره بملء إرادته يتعذر عليه غالبا أن يرتد عنه لكننا لا يصح أن نعتمد على ذلك وحده فنعين صعوبات الحياة على أمثالها بدلا من أن نعينهم على صعوبات الطريق.

ولا شك أن صديقتك أحق بإعانتها على أمرها، ليس فقط لحاجتها وحاجة أطفالها إلى ما يحفظ عليهم الحياة الكريمة.. وإنما أيضا لكى نثبت لها ولغيرها بالدليل أنها لم «تضل» الطريق حين اختارت حياتها الجادة المستقيمة.. وإنما «عرفت» طريقها الصحيح إلى ربها وصلاح أمرها وأمر أطفالها حين اختارته رغم صعوبات الحياة وعثراتها ولتتفضل إذن بالاتصال بي مساء الاثنين القادم والله المستعان على ما يصفون.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القرار الصائب!

سأعرض عليك قصتي راجيا أن تساعدني في اتخاذ القرار الصائب.

أنا موظف بإحدى الهيئات الإقليمية في الخامسة والأربعين من عمري. تخرجت في الجامعة منذ ثلاثة وعشرين عاما وتزوجت بعد تخرجي مباشرة وأنجبت طفلة.. ثم فشل زواجى سريعا وانتهى بالطلاق

.. ولم أشعر وقتها بمرارة الطلاق أو فراق الأبناء لأني كنت صغير السن وفي مطلع الشباب.. وكان حولي إخوتي وأمي فخففوا عني ما حدث ونسيته سريعا.

وبعد ثلاث عشرة سنة من تجربتي الأولى الفاشلة تزوجت وأنا ناضج في سن السابعة والثلاثين من زميلة لي بالعمل. ولم يعرف أهلها أو أي إنسان آخر بتجربتي الفاشلة الأولى..

وبعد زواجي سعيت للانتقال إلى عمل آخر تجنبا للمشاكل التي قد تحدث نتيجة لوجودنا معا في عمل واحد، وانتقلت إلى الهيئة التي أعمل بها الآن. ومضت الأيام بنا فأنجبت من زوجتي ولدا وبنتا. ورحلت أمي عن الدنيا وتفرق الإخوة والأصدقاء ولم تعد لي دنيا خارج حدود أسرتي الصغيرة. وككل حياة كانت تحدث أحيانا بيني وبين زوجتي خلافات عابرة تتم تسويتها على الفور بعد العتاب أو بعد خصام لا يستمر عدة أيام ولم تكن لى شكوى من هذه الناحية.

وفي صيف العام الماضي استأجر أحد زملاء زوجتي في العمل وهو زميل سابق لي وصديق، شقة مفروشة بأحد المصايف لقضاء الأجازة فيها وعرض على زوجتي أن نسافر معه لقضاء العطلة في هذه الشقة لأنه لن يستفيد منها سوى بغرفة واحدة. وفاتحتني زوجتي فاعترضت لأنه أعزب أولا ولأن نصيبنا في إيجار الشقة سوف يرهقنا مادية فضلا عن نفقات المصيف. لكنها ألحت على في القبول بحجة أنها فرصة لا تعوض لقضاء أجازة قليلة النفقات... وطالبتني بأن أدعه يتحمل هو إيجار الشقة لأنه كان سيتحمله سواء ذهبنا معه أم لم نذهب على أن أعطيه بطانية جديدة هدية فلا يكون له كما قالت «فضل عليك» ووافقت على مضض بسبب إلحاحها وإصرارها، وسافرنا وقضينا الأجازة وعدنا من المصيف. وبدأ هذا الصديق يتردد علينا كثير. ثم جاء عيد ميلاد ولدي ففوجئت به يفتح دولابي الخاص ويخرج منه هدايا كان قد أعدها قبل ذلك لأطفالي وأخفاها فيه بدون أن أسمح له بذلك.. وبدأت ألاحظ أشياء غريبة وأتوقف.. وأراقب وكلما طلبت من زوجتي أن تطلب منه الإقلال من زيارتنا تجنبا للمتاعب أجابتني بأنه «وحيد وغلبان!». وكثرت هداياه لها.. وكلما لفت نظرها إلى عدم جواز ذلك تقول وماذا في ذلك.. إنه يجد راحته عندنا.. وأنت ليس لك أصدقاء وفي حاجة إلى صديق مثله! ثم بدأت تخرج معه أحيانا من الساعة السابعة صباحا ولا تعود إلا في الثالثة بعد الظهر وأسألها فتجيبني: «بأخطب له.. أصله غلبان». مع أن هذا الغلبان الوحيد له أربعة أشقاء وأخت يستطيعون أن يخطبوا له نصف بنات البلد إذا أراد بالإضافة إلى انشغالها المستمر بشراء كل لوازمه الخارجية والداخلية واهتمامها بذلك على

حساب شئوني الخاصة فإذا عاتبتها شقيقتي استنكرت منها ذلك وذكرتها بأن زوجها الأهم ردت في ثبات: ماذا يعيب زميلى.. ولماذا تكرهونه؟ وأكثر من ذلك فكانت تفرض على أو تورطني في دعوته من حين لآخر لقضاء ليلة الأجازة معنا ليبيت في غرفة الأولاد وتظل تسامره طول الليل وأنا جالس أغالب النعاس، وكلما دعوتها للنهوض للنوم تجيبني بأني أستطيع أن أنام أنا في أي وقت.. أما هي فسوف تسامره لأنه عيب أن يتركه كلانا وحده! فأضطر لمواصلة الجلوس وأنا أتطوح من تأثير الرغبة في النوم حتى تطلق سراحي بعد الفجر.. وكثير وكثير من المواقف المخزية.. ثم أخيرا سافر هذا الصديق للعمل في الخارج وتنفست الصعداء لكني فوجئت بها بعد سفره بثلاثة أيام تهجر البيت وترفض العودة وتزعم أني قد ألقيت عليها اليمين ثلاث مرات خلال فترة زواجنا التي لم تكمل تسع سنوات وتطلب الطلاق لأنها صارت بذلك محرمة علىّ بسبب هذا..

وتجادلنا في ذلك وسألتها كيف قبلت عشرتي بعد اليمين الثالثة التي تزعمين أني ألقيتها عليك منذ شهور فتقول لي إنها لم تكن تعرف أنها قد أصبحت لا تحل لي وتدخل الأهل وقررنا أن نستفتى شيوخ الأزهر وقبلت ذلك لثقتي في سلامة موقفى واصطحبنا إلى هناك وقابلنا أحد الشيوخ الأجلاء وروي كل منا القصة من وجهة نظره فإذا بالشيخ الفاضل يقول لى إنها فعلا محرمة على.. وإنها صادقة وإنى كاذب.. مع أني متأكد أني لم ألق عليها اليمين خلال تلك المشاحنات الأخيرة بسبب هذا «الصديق» وقد فشلت كل الجهود في إقناعها بالعودة ومازالت ترفض بإصرار.

فماذا أفعل يا سيدى.. هل أطلقها غير مأسوف عليها وأترك أولادى.. وأواجه مرارة فراق الأبناء وأنا في هذه السن. وبعد هذه المرحلة من العمر أم أصبر عليها لعلها تفيق من غواية الشيطان وأهوائه؟ إنني أكاد أجن لعدم قدرتي على اتخاذ قرار صائب علما بأني لم أكن في يوم من الأيام مترددا في اتخاذ أي قرار هام في حياتي ولو كان فيه ضرر لي. فأرجوك أرشدني لما فيه خيرى ولا تنشر اسمي تجنبا للفضيحة ومن أجل ابنتها الصغيرة التي ستحمل وزر أمها وكذلك ابنى..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولكاتب هذه الرسالة أقول:

لن أطيل في ردي عليك حرصا على المشاعر إذا لولا أن رسالتك قد تفيد البعض في إثراء معرفتهم بالحياة وببعض ما يجري بها أحيانا من «أحوال» خارقة للمألوف لما نشرتها ولاكتفيت بالرد عليها في باب الردود الخاصة، كما أفعل كثيرا مع مثيلاتها.

يا سيدي إن المشكلة الأساسية في قصتك ليست في حقيقة عدد المرات التي ألقيت عليها فيها اليمين وهل هي ثلاث كما تتمسك زوجتك أم اثنتان كما ترى أنت، وإنما المشكلة الحقيقة هي أن زوجتك قد اختارت غيرك منذ فترة ليست قصيرة وحسمت أمرها نهائيا وهجرت بيتك وتطلب الطلاق وتصر عليه لتبدأ حياة جديدة بعيدة عنك

فماذا تريد أن تفعل بنفسك أكثر مما فعلت حتى الآن؟ وماذا تحتاج من دليل جديد على أن الحياة قد فسدت بينكما تماما ولم تعد تجدي فيها محاولات للإصلاح؟

إن محنتنا الحقيقية تبدأ حين نرفض الاعتراف بالأمر الواقع الذي يلمسه الجميع ما عدانا نحن ثم نحاول تجاهله ومواصلة حياتنا كما نراها بدلا أن نسلم بها حدث ونتحرك لمواجهة نتائجه ونتحمل تبعاته بشجاعة كما ينبغي للإنسان الرشيد أن يفعل.

وما جرى خلال العام الأخير يعكس هذه الحقيقة وينطبق عليه قول الشاعر:

وكيف يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل؟

إنني لا أريد إيلامك.. بل أقدر آلامك وأفهم دوافع إشفاقك على أبنائك.. وعلى نفسك من مرارة مفارقتهم ومعاناة محنة الانفصال في سن الهدوء والاطمئنان.. لكن ماذا نستطيع أن نفعل إذا فرضت علينا المحنة لأسباب خارجية ولا حيلة لنا فيها سوى أن نتحمل اختبارات الحياة القاسية وننهض لنبدأ من جديد؟

إن الإنسان العظيم هو الإنسان القادر على نفسه دائما قبل أن يكون قادرا على الآخرين والأكرم لمن فرضت عليه هذه المحنة ألا يتوقف ليسأل أو يجادل في عدد مرات الطلاق.. وإنها أن يتقبل الهزيمة بشجاعة الألم موقنا تماما بأنه لا يعيب المرء أبدا أن يغدر به الغادرون.. وإنما يعيبه فقط أن يرضى لنفسه بالهوان وفي مقدوره أن يتخلص منه..

ولقد حدث ما حدث ولم تلتفت للأسف لمقدماته الطويلة وحان الآن وقت تصحيح الأوضاع مهما كان ذلك قاسيا عليك فدعها لنفسها وما اختارت فذلك أفضل كثيرة من محاولة إرغامها على مواصلة الحياة معك، وليرع الله طفليك إلى أن تستطيع ضمهما إليك أو التوصل لصيغة كريمة للإشراف عليها معها الآن.. ولتبدأ حياتك من جديد مع سيدة ملائمة لك في العمر ولا رغبة لها في الإنجاب.. والإنسان يستطيع دائما أن يبدأ حياته من جديد في أي مرحلة من مراحله مستفيدة من دروس الألم وعثرات الطريق فاحزم أمرك يا صديقي سريعة.. وسرحها بهدوء حرصا على كرامتك وكرامة أبنائك واستجابة لرغبة من لا تريد الحياة معك ولا تكشف ما أراد الله ستره لصالح أبنائك وليس لصالح أحد آخر. ودع لربك أن يقتص لك ممن ظلمك ويعوضك عما لقيت خيرا مؤجلا..

وتأكد أني لا أنصح أبا أو أمة لأطفال صغار باتخاذ هذا القرار البغيض أبدا إلا إذا كان في استمرار حياتها معا، ماهو أشد بغضا وحرمة عند ربهما من انتهائها..

وفي حالات قليلة أجدني مرغما على الإيمان بصدق هذه العبارة التي جاءت على لسان إحدى شخصيات الأديب الفرنسي جان أنوي في مسرحية مسافر بلا متاع، فأرددها معه قائلا: «لا خير في الأسرة إذا انعدمت الروابط بين أفرادها.. أو إذا فسدت الحياة نهائية بينهم».

والمؤكد أن الحياة بينك وبين زوجتك قد فسدت نهائية ولم يعد يرجى لها صلاح ولم يبق إلا اتخاذ القرار الصائب بإسدال الستار عليها للأسف. وشكرا لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله)

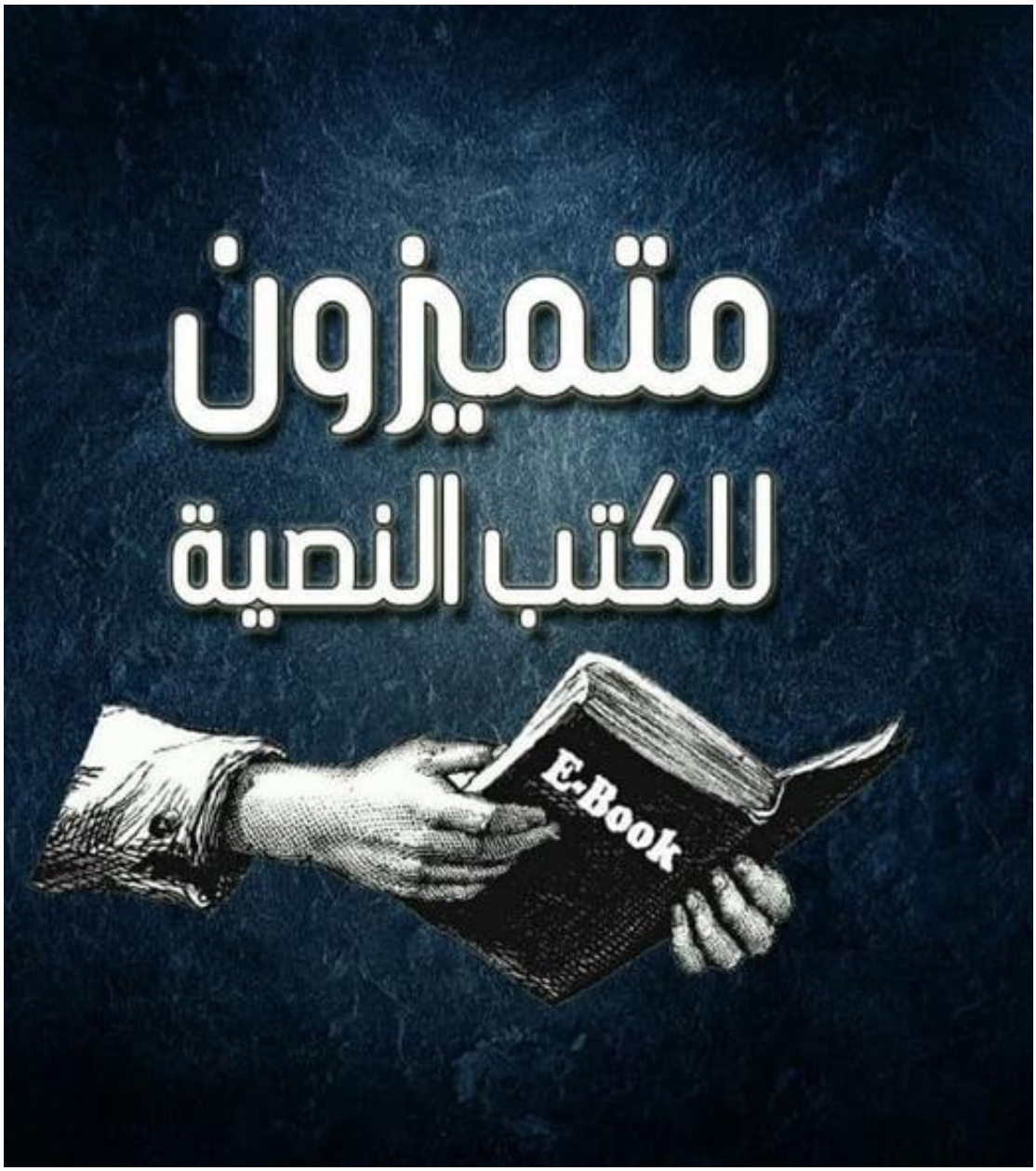
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــاة

-

الفهرس:

بسم الله الرحمن الرحيم..

للناشر كلمة...

ابتسامة الثقة

الملابس المتهدلة!

نهر السعادة والشقاء!

نظرة الحزن

الخط الأحمر!

نقطة البداية!

الأشغال الشاقة

رسالة معطرة!

الذي كان!

القرار!

قبل الوصول!

الأيام الخالية

خارج الدائرة!

البقع الزرقاء!

حادث تصادم!

بذور السعادة!

رجل البيت

طائر الوهم

ضوء الشعلة

حساب الأيام

المأزق..!

الطرقات الثقيلة!

نظرة الانكسار!

القرار الصائب!

الفهرس: